15me Année No. 719

Lundi — 14 — 4 — 1947

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــــدد ٧١٩ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٢ جمادى الأولى سنة ١٣٦٦ — ١٤ أبريل سنة ١٩٤٧ » السنة الخامسة عشرة

مقاييس وأصـــــول
فى النقد والشعر

للأستاذ عباس محمود العقاد

« كتب الأديب السورى المصرى الأستاذ خليل هنداوى مقالا فى مجلة الكتاب الفيحاء تناول فيه بالنقد مؤلف الأستاذ سيد قطب الحديث عن « كتب وشخصيات » ، واستطرد من نقده إلى الكلام على ما سماه المدرسة الشوقية والمدرسة العقادية فى الشعر ، ثم انتهى من كلامه قائلا : ومثل شوقى لن تظهر قيمته مدرسة عقادية لأنها أظهرت فيه تحيزها يوم كانت تريد أن تجعل من المازنى الشاعر الأكبر ، ومن شكرى الشاعر المصور . وها قد طلق المازنى الشعر لأنه لم ير نفســه أهلا له ، وها شعر شكرى لا يردده أحــد ، ولم يبق من تلك الفئة إلا العقاد . والعقاد رجل ذهنية جبارة وعقل خصيب عجيب ، لا يسمح له أن يطير إلا بقدر ...

« وكان من الحق أن أرجع إلى صاحب المدرسة فى هذا السـؤال الذى أردت له جواباً شافياً عن هاتين المدرستين ... فما قول الأستاذ فيما كتبه الهنداوى وما زعمه من التحيز وما حكم به بين المدرستين ... الخ .

على نافع

ونحن نوجز غاية الإيجاز فى الجواب المفيد على هذا السؤال ، فنقول إن التحيز فى أحكام الأدب — وفى جميع الأحكام — أخلق أن ينسب إلى الذين يستحسنون أو يستهجنون لغير سبب يعلمونه إلا أنهم قد استحسنوا وأنهم قد استهجنوا ولا مزيد .

أما أن تبنى حكمك على أصول ومقاييس تعم الآداب كلها ولا تخص أحداً من الشعراء أو الكتاب فليس ذلك من التحيز فى شىء كائناً ما كان الرأى الذى ترتئيه . وليس التحيز إلا الذى يستمع إلى تلك الأصول والمقاييس فلا ينقدها ولا يبطلها ولا يفهمها على الوجه الصحيح .

ونحن لا يعنينا شاعر من الشعراء بعينه إذا فهمنا الشعر على حقيقته وطلبناه من معدنه . أما إذا كنا نجهل تلك الحقيقة ولا نعرف المحك الصادق لذلك المعدن فالمصيبة أعم من محاباة شاعر أو الإجحاف به والتحامل عليه لأنها مصيبة الميزان نفسه لا مصيبة الشىء الموزون فى إحدى كفتيه ، أو فى كلتا كفتيه .

ونحن لم نقل إن المدرسة الشوقية خلو من محاسنها ومزاياها ، ولا قلنا إنها لم تشتمل على شىء غير النقائص والعيوب .

ولكننا قلنا إنهــا لم تحقق للشعر أشرف مقاصده وأرفع مزاياه ، وعرضناها على المقاييس الخالدة التى لا سبيل إلى التشكيك فيها بحال من الأحوال ، فلم يصدق عليها مقياس منها ولا حاول أحد أن يصحح لنا ما قسناه مخالفاً فيه مذهبنا فى « التطبيق » .

وهذه خلاصة تلك المقاييس التى ندع إنكارها لمن يستطيع إنكارها ، أو ندع تطبيقها على خلاف رأينا لمن يشاء كما يشاء .

فالمقياس الأول أن الشعر قيمة إنسانية قبل أن يكون قيمة لفظية أو صناعية .

فما من أمة على وجه الأرض إلا وهى تنظم الشعر على اختلاف اللغات والأوزان .

وهى لا تنظم الشعر لأنها تتكلم بهذه اللغة أو تلك ، وتعرف هذا الضرب من العروض أو ذاك . ولكنها تنظمه لأنها كائنات إنسانية حية تجمعها كلها سليقة الإنسان ونوازع الحياة .

فأول مقياس للشعر الصادق الرفيع أنه يحتفظ بقيمته الكبرى إذا ترجم إلى جميع اللغات ، لأنه يرجع إلى الطبيعة ولا يجعل مرجعه كله إلى أعاريض الأوزان أو موقع الألفاظ فى الآذان .

نعم إن الموسيقية اللفظية مزية من مزايا الشعر فى كل لغة من اللغات .

ولكنها إذا كانت هى مزيته الوحيدة ؟ أو مزيته الكبرى التى لا ينهض بغيرها ، فأول ما يفهم من ذلك أنه كلام منفصل من الطبيعة الإنسانية ، وأنه صناعة محض وتلفيق من الألفاظ والأوزان ، وليس من الشعر الإنسانى الخالد فى طراز رفيع

والمقياس الثانى أن الشعر تعبير عن نفس صاحبه وإن كان وصفاً لغيره .

فإذا قرأت ديواناً كاملا من الشعر وجب أن تعرف صاحبه وتتمثله فى دخائل طبعه ونوازع سريرته وأطوار حياته .

وإذا تتبعت غزله — مثلا — فى أطوار تلك الحياة وجب أن تتمثل لك سمات حبه وسمات محبوبه فى كل طور من تلك الأطوار .

فلا يكون الشعر تعبيراً عن نفس حية إذا كنت تجهل تلك النفس حين تقرأ ديوان صاحبها ، ولا تستخرج لها من ديوانه ترجمة حياة داخلية لا يعوزها شىء غير الأرقام والأعلام .

ولا يكون الشعر تعبيراً إذا كنت تقرأ غزل الشاعر كله من صباه إلى شيخوخته فلا ترى فيه فارقاً بين محبوب ومحبوب ، ولا بين عاطفة وعاطفة ، ولا بين شباب ومشيب .

ولا يكون الشعر تعبيراً إذا كان صاحبه يزعم لك أنه معطيك صورة من الأحياء والجمادات وهو لا يعطيك صورة من نفسه .

وإنما هذا صناعة وفقر فى نوازع الحياة ؛ لا يبلغ بقائله من القوة أن يميزه «شخصاً كاملا» بين غيره من شخوص الأحياء .

والمقياس الثالث للشعر الصادق أن القصيدة بنية حية أو « بنية عضوية » يقع كل جزء منها فى موقعه الذى لا يغنى فيه غيره ، كما تتألف الأجسام من الجوارح والأعضاء .

فإذا عالجتها بالتقديم والتأخير ماتت كما يموت الجسم الحى الذى تضع قدميه فى موضع رأسه أو رأسه فى موضع قدميه .

أما إذا جاز لك أن تبعثرها شذر مذر ثم تعيدها فى كل مرة على وضع جديد فهى إذن من عالم الجماد لا من عالم الأحياء . بل هى من عالم الجماد الذى لا فن فيه ولا تنسيق له ولا معنى لتركيبه . لأنك لا تستطيع أن تصنع هذا الصنيع بجهاد كالتمثال أو جماد كالدولاب أو القدح المنقوش .

***

هذه أمثلة من المقاييس التى ندين بها فى نقد الشعر وتقدير الشعراء ...

فعلى أى وجه تجوز المخالفة فيها ؟

لا تجوز المخالفة فيها إلا على وجه من وجهين :

فإما أن يقول القائل إن هذه المقاييس باطلة فى جملتها وتفصيلها ، وإن الشعر قد يكون من طراز الشعر الرفيع وهو لا يعطينا مزية إنسانية بمعزل عن رنين الأوزان وطلاوة الألفاظ ، ولا يعبر لنا عن نفس صاحبه ودخيلة حياته ، ولا تتماسك قصائده تماسك البنية الحية التى تستعصى على التقديم والتأخير .

فإن قال القائل هذا فهو وشأنه فيما يراه ، والناس وشأنهم فى الأخذ بما رآه .

أما إذا قبل تلك المقاييس وارتضاها فليس له غير وجه واحد للمخالفة فيما قدمناه ، وذلك أن يقول إن المقاييس صحيحة ولكنها تنطبق على شعر المدرسة الشوقية وما جرى مجراها .

ومعنى ذلك أنه يستطيع أن يستخلص من دواوين شوقى صورة صادقة له كالصورة التى نستخلصها من الدواوين لأمثال المتنبى والمعرى وابن الرومى وأبى نواس وأن يعرف من غزله أطواراً لحبه فى الشباب والمشيب ، وأوصافاً لمن أحبهم ونظم الغزل فيهم على اختلاف المحاسن والسجايا وألوان الغرام .

٢ – تفســـير الأحلام

للعلامة سجموند فرويد

سلسلة محاضرات ألقاها في ڤينا

للأستــــاذ محمد جمال الدين حسن

المحتوى الظاهر والمحتوى الباطن للحلم :

رأيتم أن دراستنا لسيكولوجية الأخطاء لم تكن عديمة الفائدة ، فقد استطعنا بفضل الجهود التي بذلناها في هذا الاتجاه أن نصل ، عن طريق الفروض التمهيدية التي تعلمونها ، إلى نتيجتين : الأولى فهم لطبيعة عنصر الحلم ، والثانية العثور على طريقة لتفسير الأحلام . أما عن طبيعة عنصر الحلم فقد رأينا أنه ليس في حد ذاته شيئاً رئيسياً ، وإنما هو بديل من شيء آخر مجهول لدى الشخص الحالم . وإنا لنأمل في تطبيق هذا الفهم على الحلم بأكمله كمجموعة من هذه العناصر ، والطريقة التي سنتبعها هي أن ندع بعض الأفكار البديلة تتوارد على خاطرنا ، وبوساطة الترابط المطلق سنصل إلى كشف الغطاء عن الأفكار اللاشعورية وإبرازها إلى منطقة الشعور .

فإذا انتقلنا الآن من النظر إلى العنصر الواحد ونظرنا إلى الحلم كوحدة كاملة وجدنا أن الحلم ما هو إلا تحريف لشيء آخر لاشعوري وأن الغرض من التفسير هو الكشف عن هذه الأفكار اللاشعورية ، وعلى هذا يجب مراعاة الثلاث قواعد الهامة الآتية عند التفسير :—

١ – لا داعي للاهتمام بالمعنى السطحي للحلم سواء أكان معقولا أم غير معقول ، واضحاً أم غير واضح ، فهو لا يحتوي بأي حال من الأحوال على الأفكار اللاشعورية التي نبحث عنها .

٢ – يجب علينا أن نركز جهودنا في محاولة تذكر أفكار بديلة لكل عنصر على حدة من غير أن ننعم النظر فيها كثيراً لنرى إن كانت تحتوي على شيء يلائم الحلم أو لا يلائمه . كما يجب علينا أن لا نهتم كثيراً إذا شعرنا أن هذه الأفكار تقودنا بعيداً عن عنصر الحلم .

٣ – يجب علينا أن ننتظر حتى تبرز الأفكار اللاشعورية الخفية التي نبحث عنها من تلقاء نفسها كما حدث في حالة الكلمة المنسية « مونا كو » التي رويتها لكم في المحاضرة السابقة[1] .

والآن أظنكم أدركتم أنه لا داعي مطلقاً للقلق أو المبالاة إذا كنا لا نتذكر الحلم بأكمله بل نتذكر جزءاً كبيراً أو صغيراً

(١) العدد ٧١٦ من الرسالة .

ومعنى ذلك أنه يستطيع أن يترجم قصائد شوقي ويحتفظ لها بالجوهر الذي لا يزول بزوال المحاسن اللفظية والنغمة الموسيقية ، ويستطيع أن يتحدى الناقد بقصيدة تتماسك في بنيتها كما يتماسك الأحياء وتستعصي على محاولة التقديم والتأخير .

فإذا استطاع هذا جاز له أن يسمى استحسانه استحساناً وأن يسمى كلامه رداً على نقد وبياناً في معرض الآراء والأذواق .

أما أن يكون قصاراه « الاستحسان وبس » ! فله أن يستحسن « وبس » كما يريد ، وله أن يقول إن المستحسنين مثله «وبس» كثيرون . ولكن أي استحسان هذا الذي تقيمونه معياراً لآداب الإنسانية يا هؤلاء ؟

إن الذين طربوا لشعر شوقي ولم يلمسوا مواطن النقص فيه هم بأعيانهم أولئك الذين طربوا لتلك الأغاني السقيمة الشائعة ، ورددوها وترنموا بها ولا يزالون يترنمون بها وهي تغثي النفوس وتفرغ المعدات .

أفهذا هو المقياس القويم المستقيم ، وما نبسط نحن من خلاصة الآداب الإنسانية هو التحيز والعجز عن التقدير ؟

افهموا يا هؤلاء أولا .

وافهموا يا هؤلاء ثانياً .

وافهموا يا هؤلاء أولا وأخيراً .

افهموا قبل أن تتهموا ، وافهموا قبل أن تنصبوا أنفسكم قدوة للنقد والتقدير ، ومحكمة تقضي بالتحيز وتستأثر لقضائها بالإنصاف .

عباس محمود العقاد

منه فقط ، وأيضاً إذا كنا نتذكر هذا الجزء جيداً أم لا . فالحلم كما نتذكره ليس هو الشيء الحقيقي الذى نبحث عنه وإنما هو بديل محرف له نستطيع بوساطة الأفكار البديلة التي تنتج عنه أن نقترب من المعنى الحقيقي وأن نصل إلى إبراز الأفكار اللاشعورية إلى منطقة الشعور . فإذا حدث أننا أخطأنا في تذكر الحلم فمعنى ذلك أن تحريفاً آخر وقع في البديل وهذا التحريف لا يمكن أن يكون من غير دافع .

وكما أن في استطاعتنا أن نفسر أحلام الغير فإن في استطاعتنا كذلك أن نفسر أحلامنا ، والحقيقة أننا نتعلم كثيراً من هذا التفسير . فإذا حدث أن أجرينا تجربة على أنفسنا فإننا نلاحظ أن هناك قوة داخلية تعمل على عرقلة التفسير . حقيقة أن الأفكار المترابطة تتوارد على خاطرنا ولكنا نجد أننا لا نريد أن نعترف بها جميعاً بل نأخذ في نقدها والتمييز بينها فننتخب ما هو صالح فنقول لأنفسنا : « لا : هذه الفكرة لاتلائم الحلم » . أو « هذه فكرة تافهة جداً » . أو « هذه فكرة بعيدة عن الموضوع » . ثم نلاحظ أننا بهذه الاعتراضات كلها قد خنقنا الأفكار المترابطة وفي النهاية أقصيناها عنا قبل أن تتمكن من الظهور بوضوح تام . وعلى هذا فإننا نحاول من ناحية أن نتمسك بالفكرة الأصلية ، أى عنصر الحلم نفسه ، ومن ناحية أخرى نعرقل عملية الترابط المطلق عند ما نحاول النقد والتمييز . فإذا حدث أننا لم نقم بالتفسير بل تركنا شخصاً آخر يقوم به فإننا نلاحظ جيداً أن هناك دافعاً آخر يدفعنا إلى هذا التمييز بين الأفكار المترابطة فنقول لأنفسنا في بعض الأحيان : « لا هذه فكرة يثقل على النفس التحدث بها . إني لا أستطيع بل لن أقولها له » .

ومن الواضح أن هذه الاعتراضات تهدد مسعانا بالفشل ، ولذا يجب علينا أن نتخذ لأنفسنا الحيطة ضدها . فإذا كنا نقوم بتفسير أحلامنا وجب علينا أن نعقد العزم على أن لا نخضع لهذه الاعتراضات مهما بدت قوية ، وإذا كنا نقوم بتفسير أحلام الغير فيجب أن نضع نصب عينيه هذه القاعدة الصارمة وهى أن لا يخفى عنا أى فكرة تخطر على باله أثناء عملية الترابط المطلق حتى لو اعترضها أحد الاعتراضات الأربعة التي ذكرتها لكم كأن تبدو عديمة الأهمية أو سخيفة ، أو غير ملائمة ، أو يثقل على النفس التحدث بها . وقد يأخذ الشخص على نفسه عهداً أن لا يخرج عن هذه القاعدة ، ولكنا سنشعر بالخيبة والضيق بلاشك عند ما نرى أنه سرعان ما ينسى هذا الوعد . وقد نحسب لأول وهلة أن هذا النسيان يرجع إلى عدم ثقته في نجاح عملية الترابط المطلق على الرغم من تأكيداتنا القاطعة له . وربما كانت الخطوة التالية لذلك هى أن نحاول أن نجتذبه أولا إلى نظريتنا بأن نعطيه كتباً يقرأها أو نرسله إلى محاضرات يسمعها حتى يتحول إلى وجهة نظرنا في الموضوع ، ولكن قليلا من التفكير يرينا أنه لا داعي لاتخاذ مثل هذه الخطوة الخاطئة ، لأننا سنرى أننا أنفسنا عرضة لمثل هذه الاعتراضات على الرغم من عدم شكنا ألبتة في نجاح طريقتنا .

ولكنا بدلا من التبرم بهذا الإهمال من الشخص الحالم في المحافظة على وعوده لنا سنتخذ من هذه التجربة مادة صالحة لنا في الحصول على شيء جديد ، شيء ذى أهمية كبرى لأننا لم نكن نتوقعه ألبتة . فمن الواضح أن عملية تفسير الأحلام تلاقي معارضة قوية بوساطة « مقاومة » تبدو على هيئة اعتراضات في شكل نقد ، وهذه المقاومة لاعلاقة لها باقتناع الحالم نظرياً بنجاح العملية. وقد أثبتت التجارب أن الاعتراضات التي من هذا النوع ليس لها ما يبررها بل على العكس قد ثبت أن الأفكار التي يحاول الشخص إخفاءها عنا هى بغير استثناء على درجة كبيرة من الأهمية ، وأنها لازمة جداً للوصول إلى الأفكار اللاشعورية . وعلى هذا يجب علينا أن نمتنى عناية خاصة بالأفكار التي يصحبها اعتراضات من هذا النوع .

وهذه « المقاومة » تعتبر شيئاً جديداً لم يكن متوقعاً بالمرة . وهى ظاهرة لم تكن ضمن الفروض التي فرضناها في مبدأ الأمر ولكنا اكتشفناها أثناء البحث . وإنا لنخشى أن تكون هذه الظاهرة عقبة في طريقنا مما قد يدعونا إلى اليأس أو الكف عن بذل المجهود في تفسير الأحلام . ولكنا من وجهة أخرى قد نجد لذة في التغلب على هذه الصعوبات ، فهذه المقاومة التي تعترضنا كلما توغلنا في البحث عن الأفكار اللاشعورية لا بد وأنها تخفى

وراءها شيئاً ذا أهمية عظمى . وإلا فما الداعي لهذه الصعوبات التي نلاقيها ولا غرض لها إلا التستر والتعمية على قدر الإمكان ؟ إن الطفل عند ما يرفض أن يفتح لنا قبضة يده ليرينا ما بداخلها فما لا شك فيه أنه يقبض على شيء لا حق له في امتلاكه .

وهذا العامل الجديد (المقاومة) يختلف من الناحية الكمية باختلاف الأحلام . فقد نجد أنفسنا أثناء العمل عرضة لمقاومات قوية ومقاومات ضعيفة . وهناك عامل آخر كثيراً ما نلاقيه أثناء التفسير يمكن أن نقرنه بهذا العامل ، أعني أنه في بعض الأحيان قد تكفي أفكار قليلة أو فكرة واحدة فقط للوصول من عنصر الحلم إلى الأفكار اللاشعورية التي تستتر وراءه ، بينما في أحيان أخرى قد نحتاج إلى سلسلة طويلة من الأفكار المترابطة ، وإلى التغلب على كثير من الاعتراضات قبل الوصول إلى غايتنا . وهذه الأفكار المترابطة يختلف عددها باختلاف شدة المقاومة ، فإذا كانت المقاومة ضعيفة فإن الأفكار البديلة تكون قريبة من الأفكار اللاشعورية ، أما إذا كانت المقاومة قوية فإنها تسبب تحريفاً كبيراً في الأفكار البديلة ، ومن ثم نحتاج إلى طريق أطول للوصول إلى الأفكار اللاشعورية نفسها .

أظن أن من الأوفق الآن أن نختار حلماً من الأحلام ونطبق عليه طريقتنا في التفسير لنرى إن كان ما توقمناه صحيحاً أم لا ؟ ولكن أي حلم نختار ؟ هذه هي المشكلة . فأنتم لا تعلمون الصعوبات التي ألاقيها في ذلك ، ولا أنا بمستطيع أن أفسر لكم هذه الصعوبات الآن . وقد يرى بعضكم أن الحلم الواضح الغير مشوش يكون سهل التفسير ولكنه بذلك يكون قد ارتكب خطأ كبيراً ، فقد أثبت التحليل أن مثل هذه الأحلام تكون قد تعرضت إلى درجة عالية من التحريف وعلى هذا فإنني أقترح عليكم أن نختبر عنصراً واحداً فقط من الحلم ونطبق عليه طريقتنا لنرى ما ذا ستكون النتيجة :

(ا) قصت علي سيدة أنها وهي طفلة كانت دائماً تحلم : « أن الله يلبس على رأسه قبعة من الورق تغطي عينيه » . كيف نستطيع إذاً أن نفسر هذا الحلم إذا لم تمد لنا صاحبته يد المساعدة ؟ لظنه من غير المعقول فالحلم يبدو تافهاً لا معنى له . ولكن هذه السخافة تبرعان ما تختفي عندما تروي لنا السيدة أن أهلها وهي فتاة صغيرة كانوا يضعون على رأسها مثل هذه القبعة كلما جلست إلى المائدة لأنها لم تكن تكف عن النظر في أطباق أخواتها لترى إن كان أحدهم قد نال نصيباً أكبر من نصيبها . ومن الواضح أن هذه القبعة كانت تستخدم كمانع يعوقها عن التلفت يميناً وشمالا ، وقد روت السيدة هذه المعلومات في غير صعوبة تذكر . وقد استطاعت أن تفسر الحلم بنفسها عند ما تواردت على خاطرها فكرة مترابطة أخرى فقالت : « ولما كنت قد لقنت وأنا طفلة أن الله يرى كل شيء ويعلم كل شيء ، فلا بد أن الحلم يعني أنني مثل الله قد رأيت وعرفت كل شيء ، على الرغم من محاولتهم منعي من ذلك » . أظن هذا المثل بسيطاً جداً .

(ب) رأى أحد مرضاي حلماً طويلاً نوعاً ما كان منه الجزء الآتي : « كان لفيف من أفراد عائلته يجلسون حول مائدة ذات شكل خاص ... الخ » وقد لفت هذه المائدة نظر الحالم إلى أنه قد سبق له أن رأى مائدة تشبهها عند زيارته لإحدى العائلات . ومن ثم تسلسلت أفكاره على النمط الآتي : كانت العلاقة بين الابن والأب في هذه العائلة من نوع غريب ، وقد أضاف الحالم أن علاقته بأبيه كانت في الحقيقة من نفس النوع . وعلى هذا فقد اتخذت المائدة في الحلم كأداة للتشبيه .

وليس من المستغرب أن يلتفت صاحبنا إلى مثل هذه التفاصيل التافهة كشكل المائدة ، فقد كان على علم منذ زمن طويل بما يتطلبه تفسير الأحلام . فنحن ننكر إنكاراً باتاً أن هناك شيئاً اسمه المصادفة في الأحلام ، بل على العكس فإننا نتوقع أن نصل إلى غايتنا عن طريق البحث في هذه التفاهات التي تبدو كأنها غير مقصودة . وقد تعجبون جداً لأن الحلم لم يقع اختياره إلا على المائدة كأداة يعبر بها عن الفكرة : « إن العلاقات بيننا تشبه العلاقات بينهم تماماً » ولكن من الممكن توضيح ذلك أيضاً إذا علمتم أن العائلة المذكورة تدعى عائلة tiechler (مائدة = tisch) فالحالم عند ما جعل أهله يجلسون على نفس المائدة كان يعني أنهم أيضاً كانوا « tischler » (أي مائدتين) .

(يتبع) محمد جمال الدين حسن

عالم إيطالى يدافع عن تعدد الزوجات

انسجام مبادىء الإسلام مع تطور المدنية

للأستاذ علي عبد الله

من أسرار الشريعة الإسلامية السمحة، أنها تتفق مع نظام الحياة وتطورها، وأنها تصلح لجميع الأزمان والأجيال، فلا يتحرج المسلم الذي عاش في القرن الأول من أن يعيش في القرن العشرين، دون أن يجد غضاضة أو حرجاً أو أوضاعاً تباعد بينه وبين دينه. وقد امتاز الإسلام وهو الدين الذي أعزه الله بمسايرته لتطور المدنية، واتساع صدره لما في الحياة من مفاجآت، وانسجامه مع التقدم العلمي، والسمو الفكري، والابداع الفني.

وكلما بلغ العقل البشري غايته من الكمال واتسع نطاق الأبحاث العلمية إلى حدود الإعجاز، أدرك العالم أسرار الإسلام وآمنوا بأن هذه المبادىء المحمدية السامية هي أصلح المبادىء، وأكفلها لسعادة الحياة، وأقدرها على ضمان العيش الهنيء، والصفو الرىء، والمتاع الموفور!!

وبين يدى الآن وأنا أكتب هذه الكلمة محاضرة لعالم إيطالى جليل ألقاها في مدينة شيكاغو في موضوع تعدد الزوجات في اجتماع حضره أكثر من خمسة آلاف رجل وسيدة. وقد قال في هذه المحاضرة مانصه (إن تعدد الزوجات أصبح في هذا الوقت ضرورة من ضرورات الحياة الحديثة، وقد أضحت مسئوليات الزوجة عديدة بشكل يستحيل عليها معه أن تقوم بلوازمها الخاصة كامرأة وزوجة وهو الأمر الذي حال بين الأزواج وبين كثير من المتع والرغبات.

ولست أرى علاجاً لهذه المشكلة سوى أن يكون للزوج أربع زوجات يوزع العمل بينهن حسب الكفاءات ونواحي الاختصاص: فالزوجة الأولى بحكم أقدميتها تتولى تربية الأولاد، والثانية تتولى الإشراف على نظام العمل والشئون المنزلية العامة، وتقوم الثالثة بإعداد كل ما يلزم للزوج من وسائل الراحة. أما الرابعة فمهمتها الترويح والترفيه عن الزوج وملاطفته، والتفنن في إدخال السرور عليه، ومسح غبار المتاعب عن رأسه، وجعل غرفتها عشاً لغرامه، وفردوساً لأحلامه!!)

هذا هو ملخص رأى العلامة الإيطالى هيراد في محاضرته الجديدة، وقد أشارت جريدة المصرى الغراء إلى هذه المحاضرة إشارة لطيفة.

ويعتقد الكونت هيراد أن السعادة الزوجية لا يمكن أن تقوم دعائمها إلا على هـذا الأساس إذ تقوم كل زوجة بمهمتها على نظام دقيق، فإذا مرضت إحدى الزوجات أو ماتت كان لابد للزوج أن يعيد النظر في تنظيم مملكته من جديد وأن يبحث عن زوجة شابة جميلة يضعها في مركز الصدارة العظمى من هذه المملكة.

وقد كان المفروض أن يثور المستمعون على هذه الآراء الجديدة الجريئة التي تخالف ما اصطلح القوم عليه وتتعارض مع تقاليدهم المأثورة والموروثة.

ولكن الأمر كان على العكس إذ قوبلت المحاضرة بالسرور والإعجاب والتصفيق من المستمعين جميعاً ذكراناً وإناثاً.

وأحب أن أعلق هنا على هذه الآراء التي نشرتها الصحف على أنها من مبتكرات العلامة الكونت هيراد بأنها منقولة مع شيء من التحريف من أحكام الشريعة الإسلامية التي طالعت العالم بها منذ ثلاثة عشر قرناً، وقد كان الغربيون يعتبرون هذه الأحكام من عيوب الدين الإسلامي ويتخذونها سبيلا للطعن فيه، كما كانوا يعيبون على المسلمين إقرارهم لمبادىء الطلاق، فلما كشف الله عن بصائرهم، وطار رماد التعصب من عيونهم، وارتقت بهم المدنية إلى إدراك أسرار الحياة، وفهم حقائق الوجود، آمنوا بتعاليم الإسلام وأقروها ونفذوها بالفعل على اعتبار أنها ضرورة من ضرورات العيش، حتى ليخيل إلى أنهم قد أصبحوا مسلمين بقوة الواقع وإن لم يعلنوا إسلامهم بحكم التقاليد!!

وأتذكر أنى ألقيت في العام الماضي محاضرة في نادى رابطة الموظفين بالمنصورة عن حكمة تعدد الزوجات في الإسلام حضرها كثير من أهل الرأى والعلم، فلما انتهيت منها قام شاب من إخواننا المسيحيين ومن مدرسى المدارس الثانوية، فأعلن في

صراحة عجيبة بأنه لم يكن يعرف أبداً أن الإسلام يمثل هذه السماحة وهذا اليسر ، وأنه يشعر تحت تأثير الإعجاب بما انطوت عليه أحكام الشريعة الإسلامية من مزايا وفضائل وأسرار ؛ أنه مسلم بجوارحه وروحه !! فدوت القاعة الكبرى بتصفيق حماسي هز جوانح الجميع .

أما تعدد الزوجات في الإسلام فحكمة أرق بكثير مما ذكره الكونت هيراد ، وهو في اعتقادي من مزايا الدين الإسلامي وفضائله ، على أن يكون هذا التعدد لحكمة وضرورة ، لا للهو ولا للمتاع ولا لمجرد العبث والتنقل بين أذرع الغيد !! ويمكن النظر في حكمته من ناحية الباعث عليه ، فإذا كان لرجل زوجة مريضة ويئس من شفائها ورأى من الوفاء لها أن يبقيها للعناية بها على أن يأتي بزوجة أخرى تعفه وتروح عنه فما هي الحكمة في منعه عن هذا الزواج ، وهو شيء تنادي به الفطرة والطبيعة وحقائق الحياة !! وهل ذلك خير أم تركه يتخذ الأولى زوجة والأخرى خليلة ؟؟

إن الدين الإسلامي ينظر إلى الحقائق المجردة ولا يؤمن بالخداع والنفاق ، ولا يوافق أبداً على أن يتخذ الرجل زوجة واحدة ثم يتخذ بجانبها خليلتين أو ثلاثا ! ثم يدعي بعد ذلك أنه قد اقتصر على واحدة وهو في الواقع متزوج بأربع ، واحدة بشريعة الله وثلاث بشريعة الشيطان !! ومع ذلك فالإسلام لا يكلفه إلا أن يجعل الحرام حلالا

وما ذلك إلا لأنه دين واقعي يحارب الرياء والخداع والتظاهر بما لا يتفق مع الواقع .

وماذا يصنع العالم في عشرين مليوناً من الفتيات في أوربا وحدها تركتهن الحرب الضروس بدون أزواج ؟ المسألة واضحة ، فإما أن يبيح القوم تعدد الزوجات لرجل واحد أو يبيحوا البغاء لهؤلاء المسكينات !! وهنا تظهر عبقرية الإسلام في الاحتياط للطوارئ ، وتنظيم نواميس الحياة ، والتشريع الصالح للخلود .

وهذه ألمانيا المحتلة قد نفذت بالفعل نظام تعدد الزوجات بناء على طلب الفتيات والنساء وإلحاحهن ؛ لا على طلب الرجال . ولو قلنا للألمانيات الحائرات الشردات إن الإسلام هو الذي وضع لكم هذا التشريع المحكم وأعده لمثل هذه المحنة القومية لهتفن بحياة الإسلام !! الدين الذي جاء لإنقاذ البشرية والإنسانية من الويلات !!

وليست ألمانيا وحدها هي التي أخذت بنظام الإسلام في هذه الظروف العصيبة ، بل تبعتها إيطاليا مقر البابوية ، وهاهي ذي أمريكا تسير في هذا الطريق . بل وهذا هو برنارد شو يقرر في صراحة واضحة بأن مبادئ الإسلام ستغزو العالم لأنها المبادئ الصالحة للبقاء !!

وبعد فقد آن الأوان للدنيا كلها أن تصغي لهذه الآية الكريمة (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى ، وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) !!

وصدق الله العظيم .

(المنصورة) **على عبد الله**

الأدب في سير أعلامه :

١٠ - تولستوى

[قمة من القمم الشوامخ فى أدب هذه الدنيا قديمه وحديثه]

للأستاذ محمود الخفيف

خيوط من النور

لئن اشتدت حلكة الليل فى عهد نيقولا ، وأحاطت بالناس المخاوف مما كان يتهددهم من المهالك ، فإن خيوطاً من النور برغم ذلك كانت تتراءى على الأفق فتكون لأنفس الأحرار أنساً وشفاء وعزاء ...

حالت القوة بين الروس وبين أى عمل يتصل بالسياسة فقام الفكر والأدب مقام العمل ؛ ولكن أى فكر هذا وأى أدب وكيف يتسنى له أن يخرج من الرؤوس ، وكيف تتجاوب به نفوس الأحرار والرقيب من ورائهم محيط وسلطة لايحدها قانون ولا تقوّمها نصَفة ؟ ليس غير الفن ينفس به الأحرار عن أنفسهم وقد اختاروا من صور الفن : القصة والشعر والموسيقى ... وراحوا يهمسون بهذا الفن همساً سوف يكون له فى روسيا دوى عظيم .

كانت القصة الروسية على حد تعبير أحد الكتاب « صرخات من فوق خشبة الصلب » ، ولكنها كانت صرخات القوى الذى أنطقه الألم الهائل على رغمه ، لا صرخات الخائر الذى يستعطف ويبكى ...

ولما كانت القصة فى مقدمة الوسائل التى عبر بها الروس عما فى نفوسهم ، فقد برعوا فيها براعة جعلت الكثيرين من فطاحل النقد فى أوربا يسلمون لروسيا بالسبق فى هذا الميدان ، فمندهم أن فن القصة بلغ أوج كماله فى القرن التاسع عشر فى روسيا فقد سبق الروس فى هذا القرن أساتذتهم من الفرنسيين والانجليز والألمان حتى غدوا هم الأساتذة وأحدثوا فى هذا القرن أثراً بعيداً فى فن القصة فى هذه الأمم الثلاث وفى غيرها ممن نقلوا القصة الروسية الى آدابهم ...

وليس بعجيب أن ينبغ الروس فى هذا النوع من القصة ، فأمام غيرهم مجال القول متسع فى غير هذا الفن ، ولكن الروس اضطروا أن يظلوا على القصة عاكفين زمناً طويلا فتهيأت لهم أسباب التفوق ، وتعددت فى القصة مذاهبهم وأساليب تعبيرهم ، واتضحت هذه المذاهب واستقرت ، وطُوِّعت هذه الأساليب وأسلس قيادها .

كان على كتاب القصة أن يخلقوا وسيلة بها يتكلمون ولكن على ألا يفطن إلى ما يريدون المتصتون من الحكام والرقباء ، وكانت القصة فى ذاتها كعمل فنى خير معين لهم على ذلك ولكنهم أضافوا إليها ما أضافوا من صور الوصف فأبدعوا تصوير ما كانوا يريدون تصويره من مشاهد الحياة وآلامها ، وألوان العواطف الإنسانية وخلجاتها ؛ ولقد أدى بهم هذا إلى أن يسلكوا وإن لم يقصدوا مذهب الفن للفن، فلم يدعوا إلى شيء إيجابى أو يقترحوا علاجاً لداء ؛ وإنما اكتفوا أو اضطروا فى الحق أن يكتفوا بتصوير الحياة الروسية كما هى بما فيها من خير وشر ، ومن هنا كذلك كان المذهب الواقعى هو الغالب فى القصة الروسية .

وكان هذا الوصف أعلى فى الآذان صوتاً وأعمق فى النفوس أثراً من كافة صور التعبير التى أتيحت لغير الروس ، من فلسفة ومقالة ومحاضرة وبحث ، وتلك هى ميزة الفن وبخاصة فن القصة وقد بلغت أقصى ما يبلغه فن كأداة للتعبير على أيدى أساطين القصة الروسية .

وثمة صفة أخرى للقصة الروسية ، وتلك هى انطواؤها على كثير من النذر ، ويشاركها فى ذلك الشعر إلى حد كبير ، حتى ليمكن القول إن الأدب الروسى فى القرن التاسع عشر كان أكثر من أدب أية أمة تنبؤا بالمستقبل المخيف ؛ بل لعل هذا التنبؤ هو خاصته التى مازته من غيره فهو نذير للناس بالهول والبلاء والشر المستطير ، وقل أن كان بشيراً بشيء إلا بما يفهم مما يتضمنه هذا الشر المنتظر من معنى الثورة التى تذهب بالمساوئ القائمة وتفتتح فى تاريخ البلاد عهداً جديداً ..

ولقد كان الأدب الروسى فى الواقع لهذه العوامل المحيطة به أدباً ثائراً ؛ لا بما كان ينذر به من هول فحسب ولكن بما كان يصف من سوء الحال ، فإن ذلك الوصف على ما يبدو من هدوئه كان متنفساً للنفوس مما كانت تنطوى عليه من ثورة ، أو كان شكاة وأنيناً أو « صرخات من فوق خشبة الصلب »

والفرق واضح بين هذا الأدب الروسي وبين أدب فرنسا قبيل ثورتها الكبرى على أيدي فلتير وروسو وديدرو وأضرابهم فقد تفلسف أولئك الفرنسيون وسخروا وبينوا سبل الخلاص وواجهوا المسائل السياسية والاجتماعية والاقتصادية مواجهة مباشرة فكانوا في الغالب فلاسفة مفكرين ، ولكن الروس صوروا فحسب ، فلم يبينوا لنا المعايب الاجتماعية وأسبابها وشقاء العيش وعوامله ، وإنما خلقوا لنا أناساً أشقياء يتألمون وتفدحهم كوارث الحياة ولا يدرون ماذا يفعلون .

ولقد أحدث هذا الأدب أثره العميق في النفوس على الرغم من الرقابة والرقباء ، حتى انتهى الأمر إلى ثورة جارفة كانت في الواقع من صنع الفن وحده ؛ وليس في هذا الذي نذكر شيء من الغلو ، فبالفن لا بالأفكار المجردة ، ولا بالدراسة المباشرة لمشكلات روسيا هدم أدباء الروس صرح العهد القديم ، وعلى ألسنة أشخاصهم التي خلقوها وفي ميول هذه الأشخاص ونزعاتها وحركاتها عبر الكتاب عما يريده كل روسي وأفصحوا دون أن يقولوا قولا صريحاً عما كان يشغل الأذهان من آراء في الاجتماع والسياسة والاقتصاد ما كان ليسمح بها الرقيب ...

وفي الأدب الروسي جانب روحي أكسبه صفة إنسانية عامة بها وجد سبيله إلى قلوب الناس في كل أمة ؛ وهذا الجانب الروحي فيه هو محاولة الوصول إلى خلاص للانسان عامة من شرور الحياة وشقائها ، وتوقعه حياة أخرى أسمى من هذه الحياة ، ومرد ذلك في الواقع إلى هول ما عانى الروس من ظلم وما ذاقوا من ألم وشقاء . ومن عجب الأمور أن كثيراً من الأدباء الروس على ما بلوا من شرور الحياة حولهم وآنامها كانوا يؤمنون في كتابتهم بالخير وأنه هو الأصل في الإنسان ، وأن الشر يأتيه من الحياة وملابساتها ، فكان هؤلاء الأدباء متفائلين مع ما كانت تريهم الحياة من دواعي التشاؤم .

وكفر أدباء روسيا بمدنية الغرب وثقافة الغرب ، فلم يروا أنهما حق كلهما ، وإنما أحسوا فيهما بكثير من صور الباطل ؛ وارتابوا في كثير من المبادئ التي أخذ بها العالم الغربي واطمأن إلى استقرارها وصلاحيتها لتقدم العمران والسمو بمستوى الحياة ؛ وساورهم كثير من القلق فيما عسى أن تفضي إليه هذه المبادئ من كوارث قد تطيح بهـا وبمدنية الغرب جميعاً ، وقد أضاف هذا الكفران بمدنية الغرب وثقافته إلى الأدب الروسي والقصة الروسية نغمة ارتاحت إليها النفوس القلقة ، وزادت هذه النغمة ثورة هذا الأدب بروزاً ، وجعلت له خطراً كبيراً في تاريخ الفكر البشري ...

وأدى هذا الكفران بمدنية الغرب ومبادئ المجتمع الغربي إلى اتساع أفق الأدب الروسي ، فبات يتعمق النظر في مسائل الحياة والموت وما عسى أن يكون وراء هذا الكون العجيب من أسرار ود الأدباء لو استطاعوا أن يهتدوا إلى شيء منها ، وقد صبغ هذا الاتجاه الأدب الروسي بصبغة دينية صوفية لا مثيل لها في أدب الغرب ...

***

كان الشعر أسبق من النثر في هذا القرن ولذلك حق أن نتكلم أولا عما كان للشعر من أثر فيما نحن بصدده ، وقد تجلى هذا الأثر في شعر شاعرين كانت لهما أو على الأصح كانت لأولهما زعامة الشعر الروسي الحديث وهما بوشكين وليرمونتوف . وقد ولد أولهما سنة ١٧٩٩ ومات في الشهر الأول من سنة ١٨٣٧ . وولد ثانيهما سنة ١٨١٤ ومات سنة ١٨٤١ .

تمثلت الروح الجديدة في حياة بوشكين وفي شعره ، ولقد كان لهذا الشاعر الفذ الذي مات في الثمانية والثلاثين من عمره ، أعمق الأثر في الأدب الروسي في القرن التاسع عشر ...

يعد بوشكين بحق أحد عباقرة الشعر في جميع عصوره وعلى اختلاف بيئاته ، فقد خلق موهوباً كما يخلق أفذاذ هذا الفن وخوله فله قوة الشعر وعمق الفكرة وصدق الإحساس وحدته وسمو الروح وحرارة الإيمان وجمال النفس ، وله إلى جانب ذلك الأداة الطيعة من التعبير الجميل القوي والموسيقى الرائعة الحلوة .

على أن ما يعنينا هنا هو أثر فنه لا قيمة ذلك الفن ؛ ولقد كان أكبر تأثيره في حياة قومه بمـا تغنى به من أغاني الحرية ، تلك الأغاني التي هزت النفوس هزاً .

تأثر بوشكين بشاعر عظيم متمرد ثائر هو اللورد بيرون الذي قضى نحبه سنة ١٨٢٤ في حصار مسولنجي مصاباً بالطاعون ، وقد كان يدافع مع المدافعين عن حرية اليونان ، وأعجبت بوشكين

حية بيروق كما أعجبته طريقته فى الشعر ، وكان من أبرز خصائص بوشكين أنه يتمثل آثار غيره ويتأثر بها ولكنه لا يفقد أصالته ولذلك فقد احتفظ بروحه الروسية وإن اصطنع أسلوب بيرون .

تغنى بوشكين بعظمة روسيا وقوتها وكان يعد بطرس الأكبر بطلها الفرد ، وغنى بمثل البكاء حياة فلاحيها وشقاءهم ، وكان شعره مليئاً بالنذر ، فكان منذراً للطاغين مبشراً بحرية سوف تنعم بها روسيا بعد طول الأسر والعذاب نجد ذلك فى قوله « إنا منتظرون ، وقلوبنا الملتهفة تخفق بالأمل فى الحرية المقدسة كما ينتظر العاشق الشاب ساعة لقائه بفاتنته »

وتأثر بوشكين كذلك بمبادىء الثورة الفرنسية ، وكان صديقاً للديسمبريين ، ولكنه كان قد نفى إلى ضيعة أمه قبيل حركتهم فلم يشارك فيها ونجا بذلك من الموت لينظم لروسيا خير ما أخرجت من شعر وليوقظ مشاعرها ويطبع أدبها بطابعه ؛ وليكون شعره حداءها المتلئ بالأمل والسحر .

وكان حول بوشكين عدد من الشعراء ، كان ليرمنتوف الذى بدأ ينظم الشعر من سن الرابعة عشرة أبرزهم وأقواهم موهبة ، وقد تأثر هذا الشاب الشاعر ببوشكين أولا ثم بشلر وأخيراً باللورد بيرون ذلك الذى أحبه ليرمونتوف حباً كاد ينسيه كل شاعر غيره حتى بوشكين نفسه .

وكان ليرمونتوف فى شعره منذراً أكثر مما أنذر بوشكين ، وقد أذاع قصيدة غفلا من اسمه سنة ١٨٣٠ تنبأ فيها بالثورة ، حتى ليعجب من يقرأها بعد الثورة البلشفية من صحة نبوءته ؛ فكأنما كانت تتكشف له حجب الغيب ؛ وتغنى ليرمونتوف بالحرية كما تغنى بوشكين ، وكان ينظم الشعر فى يسر فيجىء قوياً متدفقاً كالسيل ، ولكن الموت لم يمهله لتمد موهبته غاية مدها فات وهو فى السابعة والعشرين ... على أنه قبل وفاته بسنة أخرج وصية نثرية سنة ١٨٤٠ تعد أول قصة تحليلية فى الأدب الروسى الحديث وهى القصة المساة « بطل من أبطال عصرنا » ، ولذلك يعد هذا الشاعر الفذ طلعة فى فن القصة .

***

ونعود بالحديث إلى القصة فنجد أن الكاتب الذى يعد مقامه فى القصة كمقام بوشكين فى الشعر هو جوجول المولود سنة ١٨٠٩ والمتوفى سنة ١٨٥٢ ؛ وليس معنى ذلك أنه لم يوجد قبل جوجول قصصى ، وإنما نقصد أن جوجول كان رائد القصة الروسية فى القرن التاسع عشر وكان زعيماً من أكبر زعمائها غير مدافع ...

قام فن هذا القصصى الموهوب على أساس السخرية من المعايب الاجتماعية فى عصره ، ولم تكن سخريته سخرية نفس هادئة تعطف على ما تخلق من الشخصيات وترفق بهم وتضحك مع الضاحكين كسخرية شارلز دكنز مثلا ، وإنما كانت سخرية عنيفة هدامة تبرز المعايب عن سخيمة ونقمة كأنها سخرية شيطان يلهو بزلة فريسة من فرائس غوايته ...

كان يؤلم جوجول أن يرى روسيا وقد ذاع فيها الشر والفساد والباطل ، وماتت فيها روح العدالة والخير ، وكان يقول دائماً إنها ممتلئة بالأقنعة الكاذبة حتى ماتقع العين على آدمى واحد فيها، والحق أنه قلما اطمأن إلى وجود شىء من الخير فى الحياة الروسية فقد استشرى الشر فى رأيه حتى لم يدع للخير مجالا ...

وقد أنتج جوجول عدداً غير قليل من القصص والصور الاجتماعية ، ويهمنا فيما نحن بصدده ثلاثة منها هى «المفتش العام» و « الأنفس الميتة » و « المباءة » أما القصة الأولى فهى ملهاة تهكمية تدور حول نبأ أذيع بأن مفتش الحكومة العام قادم للتفتيش فى مدينة من مدن الأقاليم ، ولما كان المفتش غير معروف فقد أخذ الموظفون مسافراً من المسافرين على أنه المفتش المرهوب الجانب ، فأكرموا وفادته ومشوا بين يديه بالزلفى وأعطوه المال والهدايا ، ولما رأى ذلك المسافر أنه قد أخذ منهم كل ما استطاع أخذه من المال فر هارباً ؛ ويسدل الستار عقب إعلان أن المفتش الحقيق قد وصل فعلا ! ؛ ولقد أحدثت هذه الملهاة ضجيجاً كبيراً وأثارت من حنق الحكومة على مؤلفها ما اضطره إلى مغادرة روسيا إلى إيطاليا حيث أتم قصته الكبرى « الأنفس الميتة » .

تعد هذه القصة الثانية من أعظم الآثار فى أدب أوروبا جميعاً ولم تكن لها عقدة معينة أو حكاية غرام ، وقد أتمها جوجول فى عدة سنوات ، وفيها سخر أشد السخرية من كل ما عده معيباً فى الحياة الروسية ، وتهزأ بمن شاء من الأشخاص الذين صور أمثلة لهم فى قصته الكبرى ، وقد نفذت عينه نفاذاً عجيباً إلى كل معيب شائن فى جوانب تلك الحياة وإلى كل وضيع مرذول من صور

مرجعات فى الفلسفة :

نظرية المعرفة عند شوبنهور

للأستاذ عبد الكريم الناصرى

[تتمة ما نشر فى العددين السابقين]

١ — مبدأ الصيرورة :

أو مبدأ التغير ، أو قانون العلة والمعلول . ومُفاده أن كل شيء فى العالم الواقعى المتغير فهو حلقة فى سلسلة العلل والمعلولات ، وخاضع إذاً للجبرية المطلقة . وسلسلة العلل أزلية أبدية ، بمعنى أنها تمتد إلى الماضى اللامتناهى ، وإلى المستقبل اللامتناهى . والعلة تسبق المعلول بالضرورة ، فلا مجال لتبادلها الأثر فى وقت واحد . وهناك ثلاثة أنواع من العلل ؛ وهى « العلة » بمعناها الضيق ، وتسود التغيرات الميكانيكية واللاعضوية ، و «الحافز» أو المهيج الذى يتحكم فى الحياة النباتية عند النباتات والحيوانات (كالهضم والدورة الدموية عند الحيوان والإنسان مثلا) ، و « الباعث » ، وهو يسيطر على الأفعال المقودة بالإدراك والشعور عند الحيوان والإنسان .

٢ — مبدأ المعرفة :

يتحكم هذا المبدأ فى تصوراتنا وأحكامنا . وقوة التصورات هى « العقل » الذى يختص به الإنسان ، بينا « الذهن » مشترك بين الإنسان والحيوان . والتصورات أو المجردات تتوقف على المدركات أو العيانات ، والتصور قد يحيل على تصور آخر ، وهذا على آخر مثله ، ولكن سلسلة الأفكار المجردة لا بدّ من أن تقف عند عيان ، ويكون هذا هو السبب الكافى للتصور الذى يتوقف عليه مباشرة ؛ كما أن هذا التصور هو الأساس الكافى للتصور الذى يتوقف عليه ، أى الذى هو أكثر منه تجريداً . وهناك أربعة قوانين منطقية عليا ، هى قانون الذاتية ، وقانون التناقض ، وقانون الثالث المرفوع ، وقانون السبب الكافى للمعرفة .

٣ — مبدأ الوجود :

أو مبدأ المكان والزمان . ونحن لا نستطيع أن نتصور العالم الواقعى موجوداً إلا فى الزمان والمكان . ولكننا نستطيع ، من جهة أخرى ، لا أن نتصورهما مستقلين عن التجربة تصوراً مجرداً فحسب ، بل وأن ندركهما بالعيان المباشر . ومن أجل ذلك يعتبرهما شوبنهاور صنفاً مخصوصاً من أصناف الموضوعات . ومبدأ الوجود فى الزمان هو « التوالى » ، ومبدأ الوجود فى المكان هو « الوضع » . كل لحظة من الزمان تتعين باللحظة السابقة ، وتُعيّن اللحظة اللاحقة . ومواضع المكان يعين بعضها بعضاً بالتبادل . والإضافات (أى العلاقات) المكانية هى موضوع علم الهندسة ، والإضافات الزمانية موضوع علم الحساب . وكلُّ هذه الإضافات تدرك ، أول ما تدرك ، بالعيان الخالص ، لا بالتصور والبرهان .

مبدأ الفعل :

أو مبدأ البواعث أو الباعثية . وقد كنا — فى كلامنا على مبدأ العلية — عددْنا الباعث فى أنواع العلل الثلاثة . ولكننا كنا عندئذ ننظر إلى العلية من الخارج . فإذا تأملنا الآن فى أحوالنا الباطنة ، وجدنا أن أفعالنا الإرادية أو مشيئاتنا تنعين

الناس وأنماطهم ، لم يغادر شيئاً من ذلك إلا أحصاه ...

ولو أراد النقاد أن يعدوا عشرة كتبٍ فى فن القصة لها أثرها فى توجيه هذا الفن ، ولها خطرها فيما تقاس به رسالة هذا الفن لكان كتاب جوجول « الأنفس الميتة » أحد هذه الكتب العشرة بلا جدال ، فهو فيما تواضع عليه نقدة الأدب أعظم ملحمة للضمة الآدمية فى أدب العالم كله ، وذلك حسب مايفهم من معنى الملحمة كمل فنى ، وليس كما قد يذهب إليه الذهن من معنى المعركة. فما فى القصة معركة ما وإنما نقصد معنى الملحمة كما تسمى ملهاة دانتى المقدسة ، أعنى أنها عمل أدبى شامل يحيط بكل شيء مما هو منه بسبب ...

(يتبع) الخفيف

بالأسباب التي ندعوها « البواعث » . وقد وصف شوبنهاور قانون الباعثية « بأنه العلة مرئية من الداخل » ، وعن طريقه يتم الانتقال من عالم الظواهر إلى الشيء في ذاته ، ومن الفيزيا، إلى الميتافيزيقا .

والمبدأ الأول من مبادىء السبب الكافي هو المبدأ الفيزياوي ، والمبدأ الثاني هو المبدأ المنطقي ، والثالث هو المبدأ الرياضي ، والرابع هو المبدأ الأخلاقي . وهذا معناه أن « الضرورة » المطلقة تعمُّ عالم الظواهر ؛ في صورة الضرورة الفيزياوية ، والمنطقية ، والرياضية ، والأخلاقية . والفرد الإنساني ظاهرة بين الظواهر ، فهو إذن خاضع خضوعاً تاماً للضرورة السببيَّة الجبرية ، ولا حرية له بهذا الاعتبار .

وكل مبدأ من هذه المبادىء الأربعة ، أو بالأحرى كل « شكل » من أشكال هذا المبدأ الواحد ، مبدأ السبب الكافي ، يعبر كما قلنا آنفاً عن طبيعة الموضوعات الخاضعة له . فمبدأ الوجود في الزمان الخالص هو « التعاقب » أو « التوالي » ، وليس الزمان شيئاً سوى هذه الرابطة . ومبدأ الوجود في المكان الخالص هو « الوضع » ، وليس المكان في جوهره سوى « الوضع » والعلية هي الرابطة التي تسود موضوعات الإدراك الحسي ، التي تملأ المكان والزمان ، وتؤلف العالم المرئي ، عالم المادة . فإذا سألنا : ما طبيعة المادة ؟ فالجواب أن « المادة » ليست في جوهرها سوى العلية . كيان المادة كله هو الفعل ، والفعل هو العلية ، فالمادة علة ومعلول ، ولا شيء وراء ذلك . ومثل هذا يقال في تصوراتنا ومشيئاتنا . وصفوة القول إن كل موضوع من الموضوعات فإنما يوجد ويعرف بمقدار ما يرتبط بغيره من الموضوعات ، وفقاً لمبدأ السبب الكافي في صورة من صوره الأربع . وهذه الرابطة تستنفد طبيعة الموضوع باعتباره موضوعاً فحسب ، أي فكرة بالإضافة إلى الذات . فلنا إذن أن نقول إن عالم الموضوعات أو الفكرات لا يزيد عن كونه شبكة من العلائق والروابط والنسب ، والوجود فيه إذن وجود محض نسبي .

ومبدأ السبب الكافي ، الذي يظهر لنا العالم مطبوعاً بطابعه (طابع الضرورة والنسبية) واحد متشابه في كل صوره ، فإذا اعتبرنا أبسط هذه الصور مثلا ، وهي الزمانية أو الزمان ، فهمنا الصور الأخرى ، وطبيعة عالم الظواهر . ونحن نجد أن كل لحظة من الزمان إنما توجد لأنها محت اللحظة السابقة ، التي ولدتها ، ثم لا تلبث أن تختفي هي أيضاً ، إذ تمحوها اللحظة اللاحقة . فالماضي والمستقبل خاويان خواء الأحلام ، وما الحاضر إلا الحد المترجرج ، غير المنقسم ، بين الماضي والمستقبل .

ومثل هذا الخواء نصيبه في المكان ، وفي مضمون المكان والزمان ، أي في كل ما يصدر عن البواعث والعلل ، فلا شيء من ذلك يوجد إلا بالنسبة إلى شيء آخر مثله ، أي نسبي زائل[1] .

« وهذا المذهب في لبابه قديم : فهو يظهر عند هرقليطي ، حين يندب سيلان الأشياء الأبدي ؛ وعند أفلاطون ، حين يهبط بالموضوع إلى ما هو صائر أبداً ، وليس بكائن قط ؛ وعند اسپينوزا ، في صورة القول بأعراض الجوهر الواحد ، الكائن الباقي . كما أن (كانت) يعارض الظاهرة المحضة بالشيء ذاته . وأخيراً فإن حكمة الفلاسفة الهنود القديمة تصرح قائلة : (إن مايا ، نقابَ الوهم ، هو الذي يغشى على أبصار الفانين ، ويريهم عالماً لا يستطيعون أن يقولوا عنه ، لا إنه موجود ولا إنه غير موجود : إنه كالحلم . إنه كضوء الشمس على الرمال ، يحسبه المسافر على البعد ماء ...) — ولكن ما يقصد إليه كل هؤلاء ، وما يتحدثون عنه جميعاً ، ليس شيئاً أكثر من هذا الذي نظرنا فيه : العالم باعتباره فكرة خاضعة لمبدأ السبب الكافي » .

عالم الظواهر إذن حلم باطل . وليس ثمة من فرق حقيقي بين ما ندعوه الواقع أو اليقظة ، وبين حلم الرقاد . إذ ما عسى أن يكون معيار التفرقة ؟ إن القول بأن أحلامنا أقل وضوحاً وتميزاً من من إدراكنا في حال اليقظة ، لا وجه له ، إذ لم يتفق أن استطاع إنسان من الناس عقد مقارنة عادلة بين الحالين ، لأننا لا نستطيع أن نقارن إلا ذكرى الحلم بالواقع الحاضر . وقد جعل « كانت » ترابط الأفكار أو الموضوعات وفق قانون العلية معياراً للتفرقة بين حياة الواقع وبين الأحلام ؛ ولكن يُرَدّ على هذا بأن تفاصيل كل حلم على حدته ، على الأقل ، تترابط تبعاً لمبدأ السبب الكافي في كل صُوَره ؛ ولا ينقطع الترابط إلا بين اليقظة والأحلام ، أو بين حلم وحلم . وعلى ذلك نستطيع أن نصوغ معيار « كانت »

(١) كما أن عالم الظواهر برمته نسبي إلى الذات العارفة ، تبعاً لصورته العليا (ازدواج الذات والموضوع) .

على الوجه التالى : إن الحلم «الطويل» — الذى نسميه «الحياة» — تترابط أجزاؤه جميعاً وفقاً لمبدأ السبب الـكافى ؛ ولـكنه لا يرتبط هذا الارتباط بالأحلام « القصيرة » وإن كان كلُّ حلم من هـذا النوع الثانى مترابط الأجزاء على الوجه نفسه ؛ ونحن إنما نميز بين الحلم الطويل والحلم القصير لانقطاع الصلة السببية بينهما .

والحق أن أعظم المفكرين والشعراء لم يترددوا فى تشبيه الحياة بالحلم . فأصحاب «الفيداس» و «البوراناس» مثلا لا يعلون من تشبيه العالم الواقعى — الذى يسمونه نسيج « مايا » — بالحلم . وكان أفلاطون كثيراً ما يقول : إن الناس يعيشون فى حلم ، وإن الفيلسوف وحده يحاول إيقاظ نفسه . وشكسبير من الشعراء يقول : لقد جُبِلنا من المادة التى تصنع منها الأحلام ؛ وحياتنا القصيرة يحف بها النوم » . وقد جعل كلدرون عنوان إحدى مسرحياته : «الحياة حلم» . ولا يكتفى فيلسوفنا الأديب بما يقتبسه من الحكماء والشعراء ، بل يدلى هو أيضاً بدلوه ، ويستأذن قارئه فى هذا التشبيه من تشبيهاته الرائعة : إن الحياة والأحلام صفحات من كتاب واحد . والقراءة المنظمة لهذا الكتاب هى الحياة الواقعية ؛ ولكن بعد أن تنتهى ساعات القراءة (أى اليقظة) ترانا كثيراً ما نستمر على تقليب الصفحات فى تراخ وكسل ، فنقرأ صفحة من هنا وصفحة من هناك ، بغير نظام أو ارتباط ؛ وكثيراً ما تكون الصفحة مما قرأناه سابقاً ، وقد تكون فى بعض الأحيان جديدة علينا ؛ ولكن الكتاب المقروء واحد لم يتبدل . ولا ريب فى أن مثل هذه الصفحة المنفردة مقطوعة الصلة بالدراسة المنظمة للكتاب ، ولكن الفرق لا يبدو كبيراً إذا تذكرنا أن القراءة المتصلة ، كالأمر فى قراءة الصفحة المفصولة ، تبدأ وتنتهى فجأة ، وفى وسعنا إذن أن نعتبر المقروء فى الحالة الأولى صفحة واحدة كبيرة » .

إن عالم الظواهر ، هذا الحلم الذى لا نهاية له ، والذى يتسلسل فى الزمان والمكان وفقاً لمبدأ السبب الكافى ، هو موضوع التجربة المادية والعلوم المختلفة ، كالفيزياء والكيمياء والتاريخ ؛ فإن غاية العلم ومهمته استقصاء ترابط الظواهر أو الجزئيات أو الأفكار وفق المبدأ المذكور ، وعلى هدى من « اللماذا » . وتسمى هذه العملية بالتعليل وظيفة العلم إذن تعليل الظواهر ؛ ومضمونه ، الذى لا يستطيع يقدم لنا سواه ، هو ما يصل إليه التعليل من الروابط السببية . أما مضمون الظواهر ، ومعناه الأخير ، أما الشىء فى ذاته ، فإن النظر فيه والإخبار عنه ليس من شأن العلم ، لأنه خارج نطاق السبب الكافى ، الذى يهتدى العلم فى تعليلاته به . وإنما هو من شأن الفلسفة . العلم يستطيع أن يخبرنا لماذا ، وكيف ، وأين ، ومتى ، حدثت هذه الظاهرة عن تلك ، ويستطيع أن يصوغ قوانين لاطراد الظواهر ، من جذبية وكيماوية وكهربائية ومغناطيسية ، ولكنه لا يستطيع أن ينبئنا « ما » المادة ، وما الكهرباء وما الجذب وما الألفة الكيماوية ، وما سائر « القوى الطبيعية » التى تبقى ، بالنسبة إليه ، « كيفياتٍ خفيةً » أو صفات مستورة ؛ وهكذا يتركنا فى جهلٍ مطبق بشأن الطبيعة الباطنة لكل شىء . ولكن حيث ينتهى العلم تبدأ الفلسفة . فإن الوصول إلى هذه الطبيعة الباطنة ، إلى ماهيَّة العالم ، هو الهدف الذى ترمى إليه ، وهى لا تبلغه عن طريق التعليل ومبدأ السبب الكافى ، فإن هذا المبدأ لا يمتدُّ إليه كما سبق القول ، وإنما تبلغه بضربٍ من المعرفة العيانية المباشرة ، ويقول شوبنهاور هنا إن كل إنسان يعرف فى الواقع ما هو العالم ، ولكن هذه المعرفة تجريبية ، وجدانية ، غير متميزة ؛ ووظيفة الفلسفة إعادة هذه المعرفة الغامضة بلغة تصوُّرية تجريدية دقيقة . إن الفلسفة هى مجموع أحكامٍ عامة ، أساسها الكافى هو العالم نفسه برمّته ؛ وهى لذلك تلخيص أو انعكاس للعالم ، فى صورة أفكار مجرّدة ...

(بغداد) عبد الكريم الناصرى

نقبل منهم ...

للاستاذ ثروت أباظة

تلقينا (الرسالة) ونحن فى مجلس كأنما أعدّ لها ، فتناولها قارىء منا وأخذ يتلو علينا مقالاتها متنقلابين علم وفن وأدب حتى بلغ الصفحة الأخيرة ، فطوينا الرسالة — لا زالت منشورة — ثم أخذنا بجيل الحديث بيننا نخفف به ثقل الوقت ونقصر طوله . وكان فى شعر المجلة أبيات من شاعر إلى ابنه يبثه الأبوة الرحيمة ، ويعقد به الرجاء المأمول ، فقال أديب جالس :

— عجيب أمر هذه الأبوة ! كانت فى صدر الزمان قداسة يشرف الابن أن يتطلع إليها ويستمع إلى مثلها كأنه إله لا يصدر فى أفعاله وأقواله إلا عن الصواب المحض . وكان الأب من ناحيته يرث القسوة عن أبيه وأجداده ، فيبديها لأولاده ، ولو ترك لعاطفته لما بدا منه غير الرحمة . وهكذا قام الصراع فى قلب الوالد بين قسوة دخيلة ورحمة أصيلة ، وظلت العاطفتان تتصارعان منذ عهد الرومان أيام كان الوالد يملك الحياة والموت على أهله حتى اليوم ، إذ نرى الوالد يتوجه إلى ابنه بهذا الحب الصافى وبذلك الرجاء الواسع الذى يعلقه عليه ... وهكذا تغلبت الرحمة الموهوبة على القسوة المكسوبة ، وانطلقت النفوس لا يقيدها عرف ، فأبان الوالد عن خلجاته ، وكشف للابن عن نبضاته ، فانسجم البيت على حب ظاهر لا قسوة فيه ولا عنف . قلت : جميل أن يظهر الوالد عواطفه ، وجميل أن يأخذ ولده باللين ... ولكن إذا شب الولد عن الطوق ووالده لا يزال يأخذه بالرحمة ، لا يهديه إذا ضل ، ولا يعاقبه إذا زل ، وأمه لا تنفك تعامله بالحنان ؛ فهل يمكن أن يكون هذا الابن تكأة لوالديه عند الكبر ، أو مفخرة لهما يوم الفخر ؟ ... أثبتت الأيام ، وما تزال تثبت ، أن هذا لا يكون وأن هذا الابن ذا الملعقة الذهبية يتمرد على أبيه إذا قدم له الطعام فى ملعقة من فضة ... فهو يستوطىء الدعة ولا يعرف من حياته غير مائدة شهية ، وفراش وثير ، وغيد ملاح ، وكؤوس دهاق ... فالأبوة على هذا اللين قسوة ... إنما تتمثل الرحمة فى عصا الوالد التى تقود الابن إلى السبيل الأقوم .

— لقد تحدثت فأسهبت ، ولكنك أطلقت قولك كمن يلقى محاضرة لا يعرف موضوعها ، فأنا حين أقول إن النفوس أرسلت على طبيعتها لم أقصد بذلك أن يضع الوالد ولده على كرسى ثم يسمعه عبارات المديح والحب ... إن الحبيب لا يطيق هذا من حبيبه ، فكيف والأمر بين ابن وأب ؟ إن الابن لا يقبل هذا الثناء ، فهو يعرف عن حب أبيه إياه ما لا يحتاج معه إلى هذا التبيان ؛ بل لعل القول يغض من قيمة هذه العاطفة فى نظر الابن ... إنما أقصد إلى الرحمة الصادقة ... أما ما كان فى غابر العصور من قسوة فهو يخالف الطبيعة ويرهق الوالد والابن جميعاً .

— نسيت يا صديقى أننا نتكلم عن قصيدة من شاعر إلى ابنه . أنسانى طول المناقشة سبب النقاش فأرتج على حين جبهنى مناقشى به ، وكان بالمجلس شيخ وقور أخذ يستمع إلى الحوار فى إنصات ولذة دون أن يتكلم ، ولكنه لما سمع الإجابة الأخيرة ورأى حيرتى شارك فى الحديث :

— أمثلكما والد ؟

قلت — إنما نحن أبناء .

قال — إن كليكما قد أصاب فى قوله .. وكأنى بكما وأنتما تتناقشان تمثلان الصراع الذى كان قائماً فى صدر الوالد قبل أن تتغلب الرحمة ، ولكن الأب الحق وسط بين قوليكما ؛ فالرحمة الدائمة والقسوة الدائمة كلتا الخلتين فيهما مضيعة لقوام الابن ... فالوالد محتاج إلى كثير من الحزم يعرف به كيف يضع الأمور فى أوضاعها الصحيحة ، فلا يجعل الشدة فى موضع اللين ، ولا الرحمة فى موطن القسوة ، ولكن نسى كلاكما أنه إنما يتحدث عن الشاعر ، وهو وحده الذى يستثنيه المجتمع من كل هذه القيود . فاننا لا نحتمل شاباً يحدثنا عن مغامراته الغرامية ، ولكن إذا كان شاعراً وصاغ تلك مغامراته فى قصيدة فإنك لا شك تطرب لها وتعجب بها . وإذا كنت محباً فانك واجد فى قصيدة الشاعر متنفساً عما يجيش بصدرك وتشفق من إخراجه نثراً حرصاً على كرامتك إذا كنت أخا كرامة ، وكذلك الوالد الشاعر يقول قصيدته معبرة عن مشاعره نحو ابنه

قصائد تكريم خليل مطران في الميزان

للأستاذ علي متولي صلاح

— ٢ —

وكانت ثانية القصائد التي أُلقيت في تكريم مطران قصيدة الأستاذ عبد الرازق محيى الدين المفتش بوزارة المعارف العراقية وكانت قصيدته — في الحق — غاية في الإشراق والبهاء والنصاعة، وكانت الموسيقى، وكان الجرْس العذب الشجي شائعين في جميع أجزائها ...

وكانت « الحضارة » واضحة جلية فيها، ولعل أصدق وصف يوصف به هذا الشاعر أنه الشاعر « المتحضر » ! واعتقادي أن لحياته الخاصة، ولماضي أيامه، ونظام عيشه، دخلا كبيراً في ارتقاء شعره، وأخذه هـذا السمت الرفيع وإن لم أنل شرف التعرف إليه.

وقصيدته في جملتها قطعة موسيقية متناسقة متسقة لا ترى بها نشوزاً ولا تحس فيها انحرافاً عن النهج الموسيقى القويم، وهي تُغريك بقراءتها إغراء قوياً ملحاً، وتأخذ بك إلى غايتها دون توقف أو تمهـل أو تراخ، فليس لك عن تمامها معدىً أو منصرف ...

ولقد استطاع أن يضفي عليها جواً شعرياً صافياً نقياً متعطراً، وكان له فيها — إلى ذلك — معان رائعة طريفة ما أحسب الكثير من شعرائنا المعاصرين يأتون بمثلها وتتفتح لهم مغاليقها إلا من عصم الله !

وقد وصف فيها « الشاعر » الشاعر لذاته مطلقاً أروع وأجل وصف، فبيّن خصائصه التي يجب أن تكون، وميزاته التي يجب أن تتوافر، وأوضح طريقه الذي يجب أن ينهج، وفلكه الذي ينبغي أن يدور فيه انظره يقول عن الشاعر إنه :

آلة مسحورة تحيا متى ... فنيت بالشيء روحاً وخلالا
ضلّت الألباب عن إدراكه ... ومضت تحطب رشداً وضلالا

وانظر قوله عنه ممثلا في شخص مطران :

الغواني البيض ما زلت لها ... فاتناً ... تُوليك حباً ووصالا
والمعاني العصم ما زلت بها ... أكثر الناس اقتناصاً واعتقالا
تتحدى الدرب في شاهقة ... وتعاف السهل للناس مجالا ...

وانظره يقول عنه هذا البيت الطريف الرائع البديع :

مصلح في غير دعوى مصلح ... ونبيٌّ لم يكلّفنا امتثالا ... !

ولعل من كمال الجو الموسيقى الذي أحاط بالقصيدة من كافة جوانبها أن اختارها الشاعر من هـذا البحر الغنائي المرقص « الرمل » ...

وهو وإن يكن قد اضطر في القليل جـداً من أبياته إلى ضرورات كنا نود لو تنزّه عنها مثل قوله :

جئت والنهضة فينا طفلة ... بعدُ ... لم تبلغ فطاماً أو فصالا.

والفطام والفصال بمعنى، ومثل قوله يصف الشاعر « وعاذا تتحامى شره ؟ » . فإن هذه العبارة فوق مجافاتها للغة الشعر ولغة هذه القصيدة خاصة، فإن الشاعر ملاك رحيم، وليس بالشيطان الرجيم ! وليس وراء الشعراء هذا الشرّ المستطير، وهذا الويل الكبير الذي يتهيّبه الناس ويتّقونه ويلتمسون الوسائل للنجاة منه ! وصدق الذي قال : « أنتم الناس أيها الشعراء » . إلا أن

فيقرؤها القارئ ويعجب بها لأنها تعبير صادق عن شعور صادق، ويقرؤها الوالد غير الشاعر فيرتاح لها ويجد بين أبياتها المتنفس الذي أعياه البحث عنه ليفرج فيه عن أحاسيس طال عليها الكظم.

وهكذا الشعراء في كل أمـة وفي كل عصر يحملون عن قومهم ما لا يطيقه القوم، ويذيعون ما لا يذيعه غيرهم فتجرى على أسنة أقلامهم أرسال العواطف . فهلا سمحتم بأن يقولوا ما دام في قولهم راحة لغير الشعراء !

قال صاحبي وقد بدت عليه علائم الاقتناع :

— إذن فالثناء لا نقبله من والد لابنه مادام الوالد غير شاعر؛ أما الوالدون والمحبون الشاعرون فنقبل منهم .

قال الشيخ :

— هو ما قلت ، نقبل منهم .

ثروت أباظة

٢٨٠٣١

هذه هَنات هيّنات جداً لا تضيره فى شىء ، ولا تنقص قليلا من قصيدته الرائعة التى نباركها عليه ، ونشدّ على يديه مهنئين طالبين ألا يسكت — ما وسعه الجهد وواتتْه الظروف — عن الإنشاد ، وألا يسلم إلى الصمت القياد ، وسبحان من له الكمال وحده ...

وكانت ثالثة القصائد لشاعرنا الأستاذ محمد الأسمر ، وقد وجدتُ شيئاً بنفسى يرجع بى وأنا أقرؤها إلى الوراء لم أتبيّنه للوهلة الأولى ، غير أنه أخذ يدفعنى دفعاً قوياً شديداً إلى الوراء كلما أمعنتُ فى قراءتها حتى وجدتُنى أردّد معلّقة عنترة العبسى :

هل غادر الشعراء من متردّم   أم هل عرفت الدار بعد توهم ؟؟

ولكننى ما كدت أهتدى إلى هذه المعلقة حتى أوغلت فى قراءتها وتركت قصيدة الأسمر ؛ ومن وجد البحر استقلّ السواقيا!

أراد الأسمر أن يقلّد القدامى ، فنظر وأطال النظر فى هذه المعلقة ، ووقف وأطال الوقوف عندها ، علّه يقول كلاماً فيه منها مشابه وملامح ، ولكنه عاد من النظر والوقوف بظلٍ باهت ، وصدى خافت

على أن ألفاظه كانت بعيدة عن جرْس الشعر وما ينبغى له من تخيّر وانتقاء واصطفاء ، وهل من الشعر قوله :

قدّمتهم نحو العلا فتقدّموا   والفضل فضل مقدّم المتقدم !

وهل من الشعر كذلك قوله .

هذا ... وكم لك من شمائل حرة   هى «فى الحقيقة» روضة المتوسّم

أو قوله :

من شاعر يثنى عليك وناثر   هو شاعر أيضاً وإن لم ينظم

أو قوله :

صورت جنة ظالم وجحيمه   حتى الغناء وآهـــة المتألم

ولا أدرى ولا المنجم يدرى كيف يكون التصوير إن خلا من آهة المتألم وغناء النشوان وهما أدنى ما ينبغى أن يقال !

وفى مقالنا القادم إن شاء الله سنتناول القصائد الباقية وهى لشبلى ملاط وعبد الغنى حسن وللمحتفل به .

(المنصورة)   **على متولى صلاح**

(الرسالة) للأستاذ الكاتب رأيه فى شعر الأستاذ الأسمر ، والرسالة لا توافقه فى جملة ما يرى .

فى الخضم . . .

للأستاذ العوضى الوكيل

طال ليلى ، وغام أفق صباحى   هل لديكم من بلسم لجراحى
يا مدير الأقداح ما بالك اليـو   م تدير الهموم فى الأقداح
أنا فى سطوة الخُمَار ، وما أحـ   ـسب أنى منها مدى الدهر صاحِ
وكأن السنين أشباحُ ليلٍ   ملأتْه قوافلُ الأشباحِ
وكأن المنون غفوة غافٍ   وكأن الحياة صحوةُ صاحِ
طرقت راحةُ الزمان على قلـ   ـبى كطرق المستعجل الملحاحِ
يا صديقى لا تلحنى حين أبكى   فبكائى رأيته كصداحى
رب لاحٍ من الصحاب حكيمٍ   خبر الأمر فاغتدى غير لاحِ
رب دمعٍ أبيحه فى قوافىّ   ودمع فى القلب غير مُباحِ
وأنا اليوم أعزل يدفع الدهـ   ـر بكفٍ والدهر شاكى السلاحِ

رحمـــــة ! . .

للآنسة الفاضلة دنانير

يا أيها الروح الغريب الحانى   يا مؤنسى فى وحشة المكان
ومنقذى من قسوة الزمان   ألهب شعورى واسر فى جنانى
عاطفة قدســـية النيران

بحيثنى من مجهل سحيق   سد على ثلجه طريقى
ذر الهوى يبعث بالحريق   ويشعل الدماء فى عروقى
فرعدة الغرور فى كيانى

ما زلت تحت وطأة الأعوام   أخبط فى تيـــه وفى ظلام
حتى تنزلت على أيامى   روحاً من الضياء والسلام
يهدى إلى شواطىء الأمان

يا رحمـــة من رحمات ربى   هل نار سيناء أضاءت دربى
أم قبس ألقيتـــه فى قلبى   فأشرق الكون بنور الحب
وفاض بالعطف وبالحنان

لما تسمعت حنون شدوى   يقطر دمعاً من أسى وشجوِ
حنت ، وانطلقت تهفو نحوى   تهتف : يا أختاه ، أنت صنوى
نحن بخد الدهر دمعتان !.

نحن بخد الدهر دمعتان   من أدمع الأشواق والأشجان
إن يكن المزار غير دان   فقد تلاقى فى الهوى القلبان
وائتلفت على النوى الروحان

وانساب إشعاعك من بعيد   على بقايا هيكلى المجهود
فاخضر من بعد الذبول عودى   واهتز للحياة من جديد
قدست يا محى الرميم الفانى

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٩١٤ — اتق شر من أحسنت إليه

كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس ، لإسماعيل بن محمد العجلوني :

(اتق شر من أحسنت إليه) وفي لفظ من تحسن إليه . قال في الأصل[1] : لا أعرفه ، ويشبه أن يكون من كلام بعض السلف ، قال : وليس على إطلاقه بل هو محمول على اللئام دون الكرام ، ويشهد له ما في المجالسة للدينوري عن علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) : الكريم يلين إذا استعطف ، واللئيم يقسو إذا لطف . وعن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ما وجدت لئيما قط إلا قليل المروءة . وفي التنزيل : [وما نقموا منهم إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله] .

وقال أبو عمرو بن العلاء يخاطب بعض أصحابه : كن من الكريم على حذر إذا أهنته ، ومن اللئيم إذا أكرمته ، ومن العاقل إذا أحرجته ، ومن الأحمق إذا رحمته ، ومن الفاجر إذا عاشرته ، وليس من الأدب أن تجيب من لا يسألك أو تسأل من لا يجيبك ، أو تحدث من لا ينصت لك ... وعن البيهقي في الشعب عن محمد بن حاتم المظفري قال : اتق شر من يصحبك لنائلة ، فإنه إذا انقطعت عنه لا يعذر ، ولم يبال بما قال وقيل فيه .

٩١٥ — خلت الديار فسدت غير مسود !

قال ابن خلكان : كان أبو بكر محمد بن أحمد الشاشي المعروف بالمستظهري الملقب فخر الإسلام[2] — فقيه وقته ، ... وانتهت إليه رياسة الطائفة الشافعية ، وصنف تصانيف حسنة ... وتولى التدريس بالمدرسة النظامية بمدينة بغداد سنة (٥٠٤) إلى حين وفاته ، وكان قد وليها قبله الشيخ أبو اسحاق الشيرازي وأبو نصر ابن الصباغ صاحب (الشامل) وأبو سعيد المتولي صاحب (تتمة الإبانة) وأبو حامد الغزالي ، فلما انقرضوا تولاها هو . وحكى لي بعض المشايخ من علماء المذهب أنه يوم ذكر الدرس وضع منديله على عينيه ، وبكى كثيراً وهو على السدة التي جرت عادة المدرسين بالجلوس عليها ، وأنشد :

خلت الديار فسدت غير مسود
ومن العناء تفردي بالسؤدد[1]

وجعل يردد هذا البيت ، وهو يبكي ، وهذا إنصاف منه ، واعتراف لمن تقدمه بالفضل والرجحان عليه .

٩١٦ — فوزر بلائهم أبدا عليه

تاريخ الطبري : لما قسم هارون الرشيد الأرض بين أولاده الثلاثة (محمد الأمين وعبد الله المأمون والقاسم المؤتمن بعد مبايعتهم) قال بعض العامة قد أحكم أمر الملك ، وقال بعضهم : بل قد ألقى بأسهم بينهم ، وعاقبة ما صنع في ذلك مخوفة على الرعية ، وقالت الشعراء في ذلك فقال بعضهم .

أقول لغمة في النفس مني ... ودمع العين يطرد اطرادا
خذي للهول عدته بحزم ... ستلقى ماسيمنعك الرقادا[2]
فإنك إن بقيت رأيت أمراً ... يطيل لك الكآبة والسهادا
رأى الملك المهذب شر رأى ... بقسمته الخلافة والبلادا
رأى ما لو تعقبه بعلم ... لبيض من مفارقه السوادا
أراد به ليقطع عن بنيه ... خلافهم ويبتذلوا الودادا
فقد غرس العداوة غير آل ... وأورث شمل ألفتهم بدادا[3]
وألقح بينهم حرباً عواناً ... وسلس لاجتنابهم القيادا
فويل للرعية عن قليل ... لقد أهدى لها الكرب الشدادا

(١) يعني كتاب (المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة) لشمس الدين السخاوي ، والكشف هو تلخيص المقاصد قد ضم إليه فوائد من كتب أخرى . نشرت هذا الكتاب النفيس مكتبة القدسي في القاهرة .

(٢) الفعل (لقب) من الوفيات وفي كثير من كتب السيرجي ، غير متعد بالباء . في الأساس : هو ملقب بكذا أو متلقب ، وقد لقب به وتلقب

(١) للحماسي ، ورواية حبيب : ومن العناء ...

(٢) (ستلق) : ستلقين ، طير الوزن نونها .

(٣) نعرف (بداد) المبنية : تفرق القدم بداد ، جاءت الخيل بداد أي متبددة متفرقة . وليس في كتب اللغة جمع اللغة ...

وألبسها بلاء غير فانٍ ... وألزمها التضعضع والفسادا
ستجرى من دمائهم بحور ... زواخر لا يرون لها نفادا
فوزر بلائهم أبداً عليه ... أغيّاً كان ذلك أم رشادا

٩١٧ — مهما

الكشاف : (مهما) هى ما المضمنة معنى الجزاء ، ضمت إليها ما الزيدة المؤكدة للجزاء فى قولك : متى ما يخرج أخرج ، أينما تكونوا يدرككم الموت ، فإما نذهبن بك ، إلا أن الألف قلبت هاء استثقالا لتكرير المتجانسين ، وهو المذهب السديد البصرى . فإن قلت : ما محل مهما ؟ قلت : الرفع بمعنى أيما شئ تأتنا به ، أو النصب بمعنى أيما شئ تحضرنا تأتنا به ، و (من آية) تبيين لمهما ، والضميران فى (به وبها) يرجعان إلى مهما ؛ إلا أن أحدهما ذكر على اللفظ والثانى أنث على المعنى ، لأنه فى معنى الآية ، ونحوه قول زهير :

ومهما يكن عند امرئ من خليقة
وإن خالها تخفى على الناس تعلم

وهذه الكلمة فى عداد الكلمات التى يحرفها من لا يد له فى علم العربية ، فيضعها غير موضعها ويحسب مهما بمعنى متى ما ، ويقول : مهما جئتنى أعطيتك ، وهذا من وضعه وليس من كلام واضع العربية فى شيء ، ثم يذهب فيفسر مهما تأتنا به من آية بمعنى الوقت ، فيلحد فى آيات الله وهو لا يشعر ، وهذا وأمثاله مما يوجب الجثو بين يدى الناظر فى كتاب سيبويه[1] .

٩١٨ — ... ولكن أين من يصبر على أحكام العقل ؟

رسالة الغفران للمعرى : قد تجد الرجل حاذقاً فى الصناعة بليغاً فى النظر والحجة ، فإذا رجع إلى الديانة ألفى كأنه غير مقتاد ، وإنما يتبع ما يعتاد ... ويلقن الطفل الناشيء ما سمعه من الأكابر ، فيلبث معه فى الدهر الغابر . والذين يسكنون فى الصوامع ، والتعبدون فى الجوامع ، يأخذون ما هم عليه كنقل الخبر عن المخبّر ، لا يميزون الصدق من الكذب لدى المبر . فلو أن بعضهم ألفى الأسرة من المجوس لخرج مجوسياً ، ومن الصابئة لأصبح لهم قريباً سياً[1] . وإذا المجتهد نكب عن التقليد ، فما يظفر بغير التبليد . وإذا المعقول[2] جعل هادياً ، نقع بريه صادياً ، ولكن أين من يصبر على أحكام العقل ، ويصقل فهمه أبلغ صقل ؟ هيهات عدم ذلك فى من تطلع عليه الشمس ، ومن ضمنه من الرمم رمس ، إلا أن يشذ رجل فى الأمم ، يُخص من فضل بعمم[3] ...

٩١٩ — ... فأبى وحمى أنفاً وقاتل حتى قتل

أنساب الأشراف[4] للبلاذرى : قال عبد الملك يوماً لجلسائه : من أشد الناس ؟ قالوا : أمير المؤمنين . قال : اسلكوا غير هذه الطريق . قالوا : عُمير بن الحباب قال : قبح الله عميراً ، لص ، نوب ينازع عليه أعز عنده من نفسه ودينه . قالوا : فشبيب . قال : إن للحرورية طريقاً . قالوا : فمن ؟ قال : مصعب ، كانت عنده عقيلتا قريش : سكينة بنت الحسين[5] ، وعائشة بنت طلحة ، ثم هو أكثر الناس مالا ، جعلت له الأمان ، وضمنت أن أوليه العراق ، وعلم أنى سأفى له لصداقة كانت بينى وبينه ، فأبى ، وحمى أنفاً ، وقاتل حتى قُتل . فقال رجل : كان يشرب الشراب ، قال : ذاك قبل أن يطلب المروءة ، فأما مذ طلبها فلو ظن أن الماء ينقص من مروءته ما ذاقه .

(١) فى المغنى : الثانى — من معانى مهما — الزمان والشرط فتكون ظرفا لفعل الشرط ، ذكره ابن مالك وزعم أن النحويين أهملوه وأنشد لحاتم :

وإنك مهما تعط بطنك سؤله ... وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا

وأبياتا أخرى ، ولا دليل فى ذلك لجواز كونها للمصدر أى إعطاء كثيرا أو قليلا ، وهذه المقالة سبق إليها ابن مالك غيره وشدد الزمخشرى الإنكار على من قال بها .

(١) السي : المثل ، وهما سيان مثلان .

(٢) اللسان : يقال ماله معقول أى عقل وهو أحد المصادر التى جاءت على مفعول كالميسور والمعسور .

(٣) اللسان : العمم عظم الخلق فى الناس وغيرهم ، وأمر عمم : تام عام

(٤) فى (إرشاد الأريب) : « كتاب جمل نسب الاشراف وهو كتابه المعروف المشهور » قلت يعنى البلاذرى بالأشراف رجال مضر المشهورين ، وتلك كتابه فى أخبار بنى أمية ، ومن أسماء هذا الكتاب : كتاب الأنساب والأخبار ، تاريخ البلاذرى .

(٥) ابن خلكان : كانت سيدة نساء عصرها ومن أجمل النساء وأظرفهن وأحسنهن أخلاقا ، والطرة السكينة منسوبة إليها.

الأدب والفن في أسبوع

جوائز المجمع للبحث والشعر والقصة :

أقام مجمع فؤاد الأول للغة العربية في الأسبوع الماضي حفلاً أدبياً بدار الجمعية الجغرافية الملكية لتوزيع الجوائز المالية التي رصدها هذا العام للفائزين في مسابقات البحث الأدبي والشعر والقصة ، وقد افتتح الحفل الدكتور طه حسين بك بحديث ممتع مستفيض عن نشأة البحث الأدبي في الأدب العربي وتطوره بتطور العصور والثقافة ، ثم تأثره بما اقتبسناه في ذلك من ألوان الأدب الغربي واتجاهاته ، ثم انتهى إلى الحديث عن البحوث الأدبية التي قدمها أصحابها لنيل جائزة المجمع فقال : « وقد استحق ثناء المجمع وتقديره السيدة سهير القلماوي عن بحثها « ألف ليلة وليلة » والأستاذ سليم حسن بك عن كتابه « الأدب المصري القديم » ، والأستاذ جمال الدين الشيال عن « الترجمة في القرن التاسع عشر » والدكتور سيد نوفل عن كتابه « الطبيعة في الشعر العربي » والأستاذ أحمد خاكي عن كتابه « قاسم أمين » .

ثم تحدث من بعده الأستاذ عباس محمود العقاد عن الشعر ومذاهب الشعراء في النهضة الأدبية الحديثة فقسمهم في ذلك إلى مذهبين ، أو كما يقولون إلى مدرستين . مدرسة التجديد والابتداع ومدرسة التقليد والاتباع ، وقد أنحى الأستاذ باللائمة على الآخذين بمذهب المدرسة الثانية ، ثم قال : وقد رأى المجمع أن يوزع جائزة الشعر هذا العام بين شعراء المدرستين ؛ فنالها الأستاذ محمود عماد عن « ديوان عماد » ، والأستاذ محمد مفيد الشوباشي عن « ديوان الشوباشي » وهما من المدرسة الابتداعية ، كما نالها الأستاذ محمود غنيم عن ديوانه « صرخة في واد » والأستاذ محمد الأسمر عن ديوانه « تغريدات الصباح » وهما من المدرسة الاتباعية أو التقليدية .

ثم تكلم الأستاذ محمد فريد أبو حديد عن القصة في نشأتها من عهد اليونان والرومان وما تم فيها من التطورات والاتجاهات ثم ما صار لها من المقام في الآداب العالمية قاطبة وما أصبح لها من الشأن في الأدب العربي الحديث ، وبعد أن نوه بكثير من القصصيين النابغين قال : وقد استحق جائزة المجمع للقصة هذا العام الأستاذ محمود تيمور بك عن مجموع إنتاجه القصصي الغزير .

وعلى أثر انتهاء الأساتذة الثلاثة من إلقاء بحوثهم وقف الدكتور منصور فهمي باشا السكرتير العام للمجمع وأعلن أسماء الفائزين وقيمة الجائزة التي استحقها كل منهم .

هذا وستجتمع لجنة الأدب بالمجمع في هذا الأسبوع للنظر في إجراء المسابقات للعام القادم ، وقد أرصد المجمع لهذا الغرض مبلغ ثمانمائة جنيه توزع على نواحي الإنتاج الأدبي حسب ما تقدره تلك اللجنة .

ونحن من جانبنا نرجو أن يمدد المجمع في إجراء هذه المسابقات إلى تقدير أوضاع أدبية للفائزين إلى جانب تلك الجوائز المالية التافهة ، لأن الجوائز المالية يذهب أثرها وتفقد قيمتها بعد قليل ، وإذا راعى المجمع أن أكثر الفائزين ممن يعملون في الحكومة فمن الواجب أن يبذل سعيه ليكون هؤلاء في العمل الذي يلائم اتجاههم ويساعدهم على الإنتاج الأدبي ، ومن من القراء يذكر أن الشاعر محمود عماد مثلا يعتبر من الشعراء البرزين منذ أكثر من ثلاثين عاماً ، وكان اسمه يتردد مع الشعراء النابغين النابهين ، ولكنه قضى حياته على مكتب ضئيل في ركن مظلم من أركان وزارة الأوقاف ، فلم تمكنه هذه الحياة من أن يظهر للناس فنسيه الناس ، ولما أعلن فوزه بالجائزة قال القائلون : ومن هو محمود عماد . بل لقد رأيت الصحف ذكرت إسمه بين الفائزين محرفاً ، فقلت يا لله ، أيكون اسم ذلك الشاعر الكبير مجهولا إلى هذا الحد ؟

وبعد ، فإنه تقليد طيب على أي حال ، وتقدير للأدب يدعو إلى التشجيع ويحض على الإجادة في الإنتاج الأدبي ، ولعل صديقنا الأسمر بعد هذا لا يعود فيزدد قوله القديم :

نصحتك لا تكن صداح أيك وكن في مصر ناعبة القبور

تيسير الكتابة العربية :

وكان المجمع قد فتح باب مسابقة لإبداء الإقتراحات والآراء فيما يقصد إليه من تيسير الكتابة العربية ، وقدر لذلك جائزة مالية ضخمة مقدارها ألف جنيه . وقد تلقى المجمع فى هذا الموضوع عشرات الاقتراحات والمشروعات من الباحثين فى مصر وشتى الأقطار العربية ، فأخذ فى بحثها وتقديرها ووضع تقرير شامل عن مختلف الآراء التى قدمت إليه وإعلان الرأى فى مدى صلاحيتها وفائدتها وما يمكن أن تؤدى إليه فى خدمة هذا المشروع .

ومن المعلوم أن هذا المشروع يتناول وضعاً أساسياً من أوضاع العربية ، وأن الشأن فيه يهم سائر أقطار العروبة ، فليس القصد فيه بمنح الجائزة للتشجيع كما هو الشأن فى السابقات الأدبية ، وإنما القصد هو الوصول إلى طريقة مثلى فى الإصلاح ، ولهذا يجب على رجال المجمع أن لا يمنحوا هذه الجائزة وأن لا يجزموا باختيار أى اقتراح فى هذا الموضوع إلا بعد عرضه وطرحه تحت الأنظار حتى يتناوله العلماء والباحثون فى الخارج بالمناقشة والدرس والتعليق ، وإلا فالمجمع مهما بلغ من المكانة والإعتبار لا يستطيع أن يفرض مشروعاً فى هذا السبيل لا تقبله الأفهام ولا تقره الأقلام ...

محنة الأدب المصرى :

قرأت مقالا فى إحدى المجلات الأسبوعية قال فيه كاتبه : « إن المجتمع المصرى يضطرم اليوم بالحركة وبالحياة ، وهو فى يقظة متوثبة ، ومع ذلك فأدبنا عقيم راكد ، وأدباؤنا أيقاظ فى أذهان أنفسهم ، أيقاظ بأسمائهم وبشهرتهم المولية فى أذهان قرائهم ، ولكنهم رقود عما يجرى حولهم حتى لينطبع سباتهم العميق على ما ينتجون من أدب راكد ... وإذا كان الأدب المصرى اليوم يعانى أزمة فى جميع فنونه من شعر أو قصة أو مسرحية لا تقل فى شدتها عن الأزمة السياسية القائمة ، فرد ذلك إلى أنه أدب سطحى لا ينفذ إلى أعماق الحياة المصرية ، ولأنه أدب مفتعل لا يخدم غاية حتى ولو كانت هذه الغاية مجد منتجيه وشهرتهم ... »

ومقال الكاتب يدور كله حول هذا المعنى ، فهو يرى شيوخ الأدب فى مصر بالجمود والركود ، وينعى على الشبان أن أحداً منهم لم يتقدم فى هذا المترك ولم يتوجه بأدبه وفنه نحو الحياة المصرية القائمة ، وإنما عنيت بتقييد هذا الكلام لأنه يصور عقيدة قائمة فى أذهان بعض الشبان الذين أذهلتهم الحرب بأهوالها وبأحداثها عن القيم الروحية فى الحياة ، فأصبحوا يطالبون بتوجيه التفكير إلى النواحى المادية والحياة المعيشية التى يحياها الشعب وتواجهها الجماعات فى مصر ، ويملل الشيوخ الأدباء هذه الظاهرة بأنها أثر من آثار التعلق بالشيوعية ، وعندى أنها أثر لتوتر الأعصاب الذى ينتاب أبناء الشرق العربى عامة فى هذه الآونة ، ومن الطبيعى أن تكون هذه الحال بعد تلك الحرب الضروس التى أرهقت العالم سبع سنوات كاملة ، وقد بدت مثل هذه الحال عقب الحرب العالمية الأولى إذ طفت على جميع الآداب الأوروبية عامة موجة واسعة النطاق من الشك والحيرة ، حتى لقد دعا بعض الأدباء إلى التخلص من جميع الأوضاع القديمة دفعة واحدة ومواجهة الحياة على وضع سافر ، ولقد ظلت النفوس عامرة بهذا الشك حتى جاءت الحرب الثانية بأهوالها فانضجته وأثارته عند أبناء الشرق العربى المخمورين بالنغم الروحى .

ومهما يكن من شىء فإننا الآن بإزاء مذهبين فى تقدير مهمة الأدب والأدباء ، رأى يقول : الأدب للأدب ، أو الأدب لتغذية الروح والعواطف والعقل والفكر ، ورأى يقول الأدب لإسعاد الشعب وإطعامه والدفاع عن حقه فى العيش والحياة الرغيدة ، ولن نلبث قليلا حتى نشاهد معركة حامية بين الرأيين ، والتقدير!

الموت الأحمر :

على أن هذا التمرد ليس خاصة فى مصر وحدها ، فقد تلقيت العدد الأخير من مجلة « المواهب » التى يصدرها أبناء العروبة فى المهجر الأمريكى فطالعت فيها مقالا افتتاحياً مطولا قصره محرر المجلة على الحديث عن « نهضتنا الأدبية الحديثة » ، وبعد أن أطرى الكاتب ما فى هذه النهضة من ظواهر القوة والتوثب قال : « إن أدبنا الحاضر فى الأعم الأغلب أدب نقل وصنع لا أدب سجية

وطبع ، أدب فروع لا أدب أصول ، أدب لموجة وسمعة لا أدب اتقان ورفعة . وعلاوة على ذلك فهو الآن يطغى عليه — كما تعاون على تكوينه من قبل — فقران جائران : فقر القلوب وفقر الجيوب والفقر فى عرف جميع الناس هو الموت الأحمر . وقد نشأ أدبنا وشب على هذه الحال الضعيفة السقيمة ، وفى كنف هذه البيئة الخاملة القانعة بأيسر الأمور . وتفاقمت العلة وانتشر الداء ... حتى أسلم الأدب أمره إلى التزلف والإستجداء . ونعوذ بالله من التزلف والإستجداء فإنهما الخزى بعينه ، وإنهما ليقتلان الضمير قتلا ، حتى لا يدعا فى قرارة النفس ذرة من العزة والشهامة ولا قلامة من المتعة والكرامة » .

وأعود فأقول إنها نزعة طارئة ، كانت أثراً من أثر تلك الحرب الجهنمية فى النفوس ، وكان من المتوقع أن تكون ، ولن يضير الأدب أن تكون ..

إنشاء كرسى باسم شوقى بك :

تقدمت وزارة المعارف إلى مجلس الوزراء بمذكرة تطلب فيها إنشاء كرسى بقسم اللغة العربية باسم المغفور له أمير الشعراء أحمد شوقى بك لتدريس الأدب العربى الحديث فى مصر وسائر الأقطار العربية على أن يعنى فى ذلك بدراسة أدب شوقى وشاعريته دراسة مستفيضة من شتى نواحيها واتجاهاتها .

وقد ضمنت الوزارة مذكرتها المبررات التى تدعو إلى إنشاء هذا الكرسى وتحتم وجوده فقالت : إن دراسة الأدب العربى كانت منذ نشأة كلية الآداب فى مقدمة الدراسات التى عنيت بها الجامعة ، وإذا كان الأدب العربى خليقاً بعناية خاصة فقد أنشىء بعد ذلك للعناية بدراسة الأدب المصرى الإسلامى فى أطواره المختلفة إلى عصر النهضة الحديثة ، ولكن مصر الحديثة امتازت فى الأدب العربى فحملت له لواء نهضة حديثة فى بلاد الشرق العربى وظهر فى مصر من العلماء والأدباء والشعراء المعاصرين من توسطوا هذه النهضة فى مصر وبلاد الشرق العربى ، ومن هؤلاء الشاعر الكبير المرحوم أحمد شوقى بك الذى امتاز من بين زملائه بالسبق فى تصوير الصلات السياسية لمصر ومسايرة النهضة الأخيرة فيها وبخدمة المسرح العربى بما كتب من روايات ووضع من ألحان وبتقدمه الفنى على شعراء العربية الحديثين حتى بايعوه بأمارة الشعراء حياً وأبقوا على ذكراه ميتاً » ..

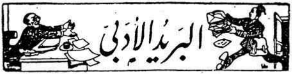
وهذه فكرة رشيدة جليلة لا يسعنا إلا تحبيذها وتشجيعها ونرجو أن يتم لها التوفيق على أكمل وجه وعلى ما يحقق تلك الأهداف التى تناولتها الوزارة فى مذكرتها وأن لا يكون إنشاء ذلك الكرسى مجرد وضع من الأوضاع الرسمية ، فإن مما يؤسف له أن الكرسى الذى أنشىء فى كلية الآداب منذ سنوات لم يثمر ولم يجد شيئاً فى تحقيق الآمال الكبيرة التى كانت منوطة به ، فما زال الأدب المصرى على عهده مجهولا مطموراً لم يكشف فيه ذلك الكرسى جديداً ، ولا أحدث فى دراسته تجديداً ، ولكنها جملة من المعلومات تتداولها الأقلام من قديم ، وتدرج عليها الأفهام كأنها الصراط المستقيم ، فلعل الله يجعل لكرسى شوقى حظاً أوفى ويوفر له جهداً أوفر ...

« الجاحظ »

نشر ما انطـــوى

يقولون أسراب الغوانى سوانح ... فهلا بعثت الطرف فيهن رائدا
نراك اعتزلت الغانيات فكلما ... سنحن صرفت القلب عنهن ذائدا
وما ذاك شأن الشاعرين وإنما ... أخو الشعر من تلقيه بالغيد واجدا
لقد ملت عن طيب الحياة وصفوها ... بميلك عن حب الحسان نواهدا
رأيت غرام الفاتنـــات مضلة ... يكدر من هذى الحياة الموارِدا
يقود زمام النفس للشر عنـــوة ... وذو اللب من قد كان للنفس قائدا
إذا ما أطعت النفس فى اللهو والهوى ... ضللت وخير الناس من كان راشدا

(دمشق) **أحمد عبير**



نسب عرب الشمال إلى إسماعيل :

إلى الأستاذ أحمد محمد شاكر :

تذكر التوراة فى الاصحاحين : الرابع والعشرين ، والخامس والعشرين من سفر التكوين أن (هاجر) حينما فرت بابنها إسماعيل من (سارة) زوجة إبراهيم لجأت إلى بادية بئر السبع ، وأن الماء الذى سقت منه ابنها إسماعيل كان فى مكان بلدة بئر السبع التى سميت بذلك الاسم منذ زمن بعيد ، وأنها زوجت ابنها من فتاة مصرية .

والذى نؤمن به ، نحن المسلمين ، أنها قد هربت به إلى الحجاز وان الله قد فجر له ينبوعاً ، هو ماء زمزم فى مكة إلى آخر ما ورد من تفصيل فى سيرة ابن هشام وجه ١٢٢ إلى ١٣٠ من الطبعة المصرية التى نقحها الأستاذ العلامة محمد محى الدين عبد الحميد ، وفسر غامضها ، وأنه قد أصهر لقبيلة جرهم العظيمة .

والشيء المعقول ، فى صلة غريب عن طريق النسب ، لقبيلة عظيمة أن يذوب نسب هذا الغريب الطارىء فى أنساب القبيلة وأن يمحى اسمه من الوجود .

والشيء الذى لا يعقل ، أن يقبل العرب وهم الحريصون على أنسابهم أن ينتسبوا إلى الرجل الذى لجأ إليهم وبسطوا عليه جناح الحماية والرعاية ، فيقال عنهم إنهم من نسل إسماعيل . ولم تذكر السيرة أن طاعوناً جارفاً قد فتك بالقبائل العربية التى كانت تملأ الجزيرة وأماتها عن بكرة أبيها وترك للحياة الذين قد انحدروا من صلب إسماعيل فقط ، وإنما تذكر قبائل جرهم وبكر وخزاعة وغيرهم وغيرهم مما لا يقع تحت العد .

والذى يتراءى ، أن المؤرخين الذين كتبوا فى التاريخ العربى قد استلهموا ذلك من آى الذكر الحكيم التى أشارت إلى هذا الحادث ، ولم يكن لديهم دليل مادى على صحة هذه النسبة .

وعلى ضوء هذه الحقيقة لا يمت اليهود للعرب بصلة من الصلات وليسوا أبناء عمومة ، وكل ما فى الأمر أن لغتهم عاشت مجاورة للغة العربية فى محيط متماثل تأثرنا به فى فترة من الزمان .

أرجو أن يتفضل الأستاذ العلامة الجليل فيفيد قراء الرسالة من علمه وأدبه بما يجلو الحقيقة .

على محمد سرطاوي

الموسيقى القديمة والحديثة :

لم يكد يطلع القراء على المقال البليغ الذى دبجته يراعة الكاتب الفنى الأستاذ عبد المنعم خلاف حول المفاضلة ما بين الموسيقى القديمة والحديثة . وما تركته فى نفسه تلك القصيدة الفذة « سلوا قلبى غداة سلا وتابا » للآنسة أم كلثوم من الأثر البالغ حتى تناقلت المقال الأيدى وتداولته ، وكان له الوقع الحسن لدى المنصرفين إلى هذه الصناعة من أعضاء الأندية الموسيقية فى الشام ، إذ عرفوا أن فى مصر نقمة على الموسيقى الحديثة الرخيصة المبتذلة تحكى النقمة عليها فى سائر أقطار العروبة ، وعرفوا أن فى مصر حنيناً إلى الموسيقى القديمة لما فيها من روح الطرب الصادقة والفن العربى السامى الذى يلذ المسامع ويستهوى الأفئدة ، ويأخذ بمجامع القلوب .

لقد كان الأستاذ محقاً فى طلبه من وزارة الشئون الاجتماعية ، الإشراف على هذه الأنغام الباكية الحزينة ذات المعانى التافهة والألحان المريضة التى تميت القلب وتحمل إلى النفوس السآمة والضجر ... إنه لطلب يشاركه فيه كل عربى سليم الذوق ، وإن فى هذا الإشراف وقاية للنشء الجديد الذى شب على سماعها وكادت تألفها أذنه ، وإذا كنا ننتحل الأعذار للملحنين المصريين المتكسبين فى تسجيل هذه الألحان على الشاشة البيضاء سعياً وراء نيل بلغة العيش ، فلن نجد لهم عذراً فى إماتة الفن القديم ، والتخلف عن وضع ألحان مبتكرة تحكى ألحانه القوية الممتعة التى يستسيغها كل ذوق ، وتهنأ بها كل نفس وتطرب لها كل أذن سليمة ... أين وهن الأنغام المستحدثة من قوة الألحان القديمة التى كنا نسمعها من شيخ الفن وعمدته الأستاذ المرحوم الشيخ درويش ، ومن زملائه الحمولى والمنيلاوى والشيخ سلامة ومحمد عثمان وداود حسنى وسالم الكبير والسفطى وغيرهم من كبار المنشدين والملحنين؟

تلك أنغام قوية عذبة تبعث فى النفوس القوة والنشوة والعزة القومية ، وهذه ألحان تميت النفوس وتقتل الشاعر وتحمل إلى القلب الخمول . كانت النفحات الأولى تنبعث من حناجر أصحابها حلوة عذبة شجية ساحرة كأنها أنغام مزامير داود ، فتملأ قلوب مستمعيها طرباً ونشوة ، وتحمل إلى النفوس البائسة الراحة والسلوى والطمأنينة والهناء ، ويقضون الليل كله فى الإصغاء إليها والتملى من نشوتها ، فغدت الأصوات اليوم تصدر من الحناجر الخشنة وتصيح بما يسمونه فناً ولو لم يحمل فى ثناياه السحر والطرب .

إن البلاد العربية التى تصدر فى موسيقاها عن الديار المصرية ، ليعز عليها ويسوؤها أن يتردى الفن فى مصر إلى هذا الدرك الذى يعلن عن نفسه بمظاهر التماوت والتخنث والضعف ، وتود من صميم أفئدتها أن يلهم القائمون على هذا الفن فى مصر ، الرجوع به إلى القديم مع اقتباس النافع الجميل من الحديث ، ذلك لأن حديثنا اليوم قد غمر نفوسنا وكاد ينسينا قديمنا ، فإذا لم توفق مصر ، وهى زعيمة العروبة اليوم إلى هذا الذى نرجوه ، فلن نرى فى الجيل الجديد إلا مضيماً للفن وأهله وإننا لنشاهد اليوم بوادر هذا التضييع منذ بدأنا نكاف آذاننا أن تستسيغ الأنغام الشعبية على ما بها من تبذل فى المعانى وحطة فى الفن هرباً بأنفسنا عن سماع القطعات الحديثة الجافة ...

ونحن لا نريد أن نشمل بحكمنا كل حديث ، إذ لا ننكران أن بعض الملحنين المعاصرين قد صدحت حناجرهم بألحان فيها فتنة القديم فأقبل الناس على تلقيها وتملها وذاعت على أفواههم وأجمع أفراد الشعب على استحسانها مثل أغنية « على بلدى المحبوب » وأغنية « ما احلاها عيشة الفلاح » و « ليلة العيد » وغيرها من المقطعات ذات النغمة البياتية الساحرة وكان سرور الناس عظيما بالالحان التى طلعت بها علينا حديثاً مطربة الشرق فى فلم « سلامة » من تلحين الشيخ زكريا أحمد ، وهذا يدل على أن بعض الملحنين المصريين بدأوا يعودون إلى القديم .

(دمشق) حسنى كنعان

مراعية :

عند ما أصف الأستاذ الشيخ على الطنطاوى بأنه من المحافظين أكون قد خففت كثيراً مما أسميه من وصفه الذى يدل على (المغالاة فى المحافظة) .

هذا المسلم المحافظ لم يعجبه أن يبقى المسلمون بدون (وسكى) فسمى الشاى الأخضر (وسكى المسلمين) ولما قرأت له هذا فى الرسالة الغراء (العدد ٧١٧) قلت فوراً : حتى أنت يا أستاذ ! ! أنقولها وأنت الفقيه الذى قرأ قول الفقهاء :- لو شرب الماء على هيئة ما تشرب الخمر كان شربه حراماً ؟

صدق رسول الله : لتتبعن سنن من قبلكم . لم يكن للمسلمين وسكى فجعلت لهم الشاى الأخضر وسكى .

فلسطينى

فى اللغة والعروض :

١ — نبه الأستاذ « عدنان أسعد » فى العدد ٧١٧ من الرسالة الغراء على خطأ « ترمى » فى البيت :

وقلبى فى بحر الحياة سفينة   تميد على صم الصخور ولا ترمى

من قصيدة الشاعر « محمد على مخلوف » ظناً منه أن الفعل من الثلاثى والصواب ضم أوله على أنه رباعى - ففى القاموس « رسا الشىء رَسْواً ورُسُوّاً ثبت كأرْسى » ولشوقى بك .

نفسى مرجل وقلبى شراع   بهما فى الدموع سيرى وأرْسى

فلا دخل للقافية ولا مخالفة لقواعد اللغة فى بيت الشاعر « مخلوف » .

٢ — ونبه الناقد فى العدد ٧١٣ من الرسالة على أن فى قول الشاعر محمود رمزى نظيم .

واخترعوا خيروا آبائنا   وملكوا بسعيهم زماننا
كيف نقول ما لهم وما لنا   إذا استغل علمهم نحولنا

تغيير التأسيس فى الأشطر الثلاثة إلى الردف فى الشطر الرابع وذلك ما نص العروضيون على خطئه ، وفى نقده مجانبة للصواب فلا ردف فى الشطر الرابع أصلا فإن الردف لا يفصل بينه وبين الروى . وما فيه هو « سناد التأسيس » ولم يتواضع العروضيون على خطئه بل نصوا على جوازه للمحدثين مع القبح والكراهة .

رياض عباس



السادهانا أو كنه الحياة !

[تأليف الأستاذ محمد محمد على]

حفلت المكتبة العربية فى أذيال الحرب الأخيرة بثروة عظيمة من ثمار الفكر والمعرفة، وأخذت تضم إليها من فنون الأدب والفن ما يبشر بنهضة فكرية عالية. ونحن مع اغتباطنا بهـذه النهضة الحديثة نود أن تسير فى طريقها الواضح السليم نحو تحقيق غايتها المنشودة. ولا يتيسر ذلك إلا بالنقد الصحيح.

فسفينة الأدب تسير فى لجـاج بعيدة الأغوار وتجتاز عوالم عديدة الألوان والناقد البصـير يجلس على سكانها يريها الطريق الرشيد، ويجنبها الانحراف عن جادة الطريق المستقيم.

ومن الكتب التى تخرجها المطابع ما يمر عليه الناقد مر الكرام، ولا يسمح لقلمه بأن يعرض له بخير أو بشر، ولا لوم عليه فى ذلك ولا تثريب؛ ولـكن أمهات الكتب ومنها كتاب السادهانا الذى أتكلم عنه لهـا على الناقد حق يجب أن يقضيه. وإلا بطلت مهمة النقد.

وقد اطلعت على ترجمة لهـذا الكتاب أخرجتها لجنة النشر للجامعيين تحت عنوان السادهانا أو كنه الحياة للأستاذ محمد محمد على فراعنى ما فى عنوان الكتاب من التحريف الذى يدل على تقصير عجيب عن فهم معناه، فالكتاب عنـوانه فى الإنجليزية The Realisation of Life ومعناه تحقيق الحياة أى جعل الحياة حقيقة. وليس فى الكتاب أى بحث فى كنه الحياة، ولـكن هذا الخطأ فى عنوان الكتاب قـد يكون شيئاً بسيطاً بالنسبة لترجمة الكلمات الآتية :

جاء فى صفحة ١٠٩ من الكتاب : فى الليلة الأخيرة، ترجمة لكلمة Lastnight وصحتها البارحة. وفى صفحة ١٢١ هناك قول ملاحظة ترجمة Remarkable saying وصحتها قول مأثور، وفى صفحة ٦٧ لعب الحياة والموت ترجمة لـكلمة l' lay of life and death وصحتها رواية الحياة والموت، وفى صفحة ٩٤ عن القارة الأوربية، إن جزئيتها فى أنها مشغولة تماماً: وجزئيتها هنا ترجمة لـكلمة its part وصحتها دورها، وفى صفحة ٢ معرفة الروح ترجمة لـكلمة Saul Consciausness وصحتها الوعى الروحى.

وفى صفحة ٨٨ الإدراك فى العمل. ترجمة لـكلمة Realisation in action وصحتها تحقيق الحيـاة بالعمل؛ ولا تخلو صفحة من صفحات الـكتاب من أمثال قوله : الذين ضعفت أفـكارهم لا غيرهم الذين ينالون الفرح ص ٣٠، أو قوله : يا عامل الـكون بدلا من يا بارىء الـكون ص ١٠١ أو قوله : إن خلاص طبيعتنا العضوية فى نيل الصحة.

وبعد فإذا كانت القوانين لا تعاقب من يرتكب مثل هـذه الأخطاء، فإن للأدب حكومة يجب أن لا تنفى عن حقها فى الضرب على أيدى العابثين فى مملكة الفن والجمال.

محمد طاهر الجبلاوى

القضايا الكبرى فى الإسلام

[تأليف الأستاذ عبد المتعال الصعيدى]

أظهرت منـذ أيام مكتبة الآداب بالجماميز بالقاهرة كتاب القضايا الـكبرى فى الإسلام للاستاذ عبد المتعال الصعيدى فى ٤٠٤ صفحات من القطع الـكبير، وصاحب الـكتاب معروف لقراء الرسالة، وقد نشر فيها نحو خمس عشرة قضية. فأذاع بعضها عنها بعض محطات الإذاعة الشرقية، ونقل بعضها عنها بعض المجلات فى الأقطار الشقيقة، وقد كانت اللغة العربية تنقصها هذه الدراسة الجديدة، وهى دراسة لا تكاد تخلو منها لغة من اللغة الأوربية، فسد هذا الـكتاب فى اللغة العربية هذا النقص، وابتكر فيها هذه الدراسة الجديدة.

ولم يدون صاحب الـكتاب هذه القضايا كما يدونها من لا يعنى بالنقل، ومن يعوزه الرأى المجتهد، والفكر المجدد، بل أظهر فيها من التجديد فى تصورها ونقد أحكامها ما أظهر، وأحيا فيها من الاجتهاد ما أماتته سبعة قرون أو أكثر، وهى ما هى فى اختلاف القدامى من القضاة والفقهاء فى أمرها، واضطراب رأيهم فيها،

لخلٍّ هـذا الكتاب منها ما أشكل ، وأتى فيها بالفهم الصحيح والقول الفصل .

وقد اشتمل الكتاب على ستين قضية فى مختلف العصور والدول والأقطار ، ورتبها من عصر النبى صلى الله عليه وسلم إلى العصر الحديث ، ليعطى القارىء فكرة عن حال القضاء فى هذه العصور ، ويعرف أمره فى مختلف الدول والأقطار ، فيظهر تاريخ القضاء الإسلامى أمامه واضحاً جلياً ، ويعرف الأسباب التى أدت إلى نهوضه ، والأسباب التى أدت إلى انحطاطه ، ولا تقف فائدته من الكتاب عند دراسته القضائية ، بل تتناول معها الناحية التاريخية .

أثر الشرق فى الغرب

[تأليف المستشرق الألماني جورج يعقوب]

أثر الشرق فى الغرب ، خاصة فى العصور الوسطى ، هذا هو عنوان ذلك الكتاب القيم الذى ألفه الباحث المحقق الأستاذ جورج يعقوب المستشرق الألمانى المعروف ، وترجمه دكتور فؤاد حسنين على المدرس بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، وقامت بنشره لجنة البيان العربى .

أما المؤلف فعالم جليل ، وباحث محقق مدقق ، كان يؤمن بعظمة الشرق ، وخاصة الشرق العربى ، ويعترف بما أدى فى سالف الزمن من خدمات جليلة مفيدة للثقافة الفكرية ، والحضارة العالمية ، وقد بذل كثيراً من الجهود لدعم هذه الحقيقة ، ولاقى فى سبيلها ما لاقى من المقاومة والرهق ، وأما كتابه فوثيقة مدعمة بالأسانيد والأدلة العلمية الناطقة على أثر الشرق فى الغرب وما أداه إبان مجده السالف نحو المعرفة والحضارة ، وإذا كان الشرق يتلقى اليوم عن الغرب ما يتلقى من علم ومعرفة ، فأن من حقه أن يقف وفى يده هـذه الوثيقة ليقول : إنها بضاعتنا ردت إلينا ...

أجل . لقد أنصف هذا المؤلف الغربى الشرق إنصافاً قوامه الحق والصدق ، ولسنا نبالغ إذا قلنا إن أحداً من أبناء الشرق الأصليين لم يبلغ فى هذا شيئاً مما بلغه ، فقد عرض فى كتابه لكل ما أداه الشرق نحو الغرب فى العلم والرياضة والأدب والفن والمهارة والنقش والزخرفة وما إلى ذلك من مظاهر المعرفة والثقافة ، وأنه ليورد فى الدليل على رأيه ما يدل على الاستقصاء فى البحث والأمانة فى العلم وكثرة ما بذل من التنقيب والرحلة إلى الأقطار الشرقية فى سبيل الحقيقة ، فلا عجب إذا ما جاء كتابه هذا حجة للشرق على الغرب ، وإن أبناء الشرق جميعاً لفى أشد الحاجة إلى هذه الحجة وخاصة فى هذه الآونة التى يناضلون فيها عن حقهم ومكانتهم ، وإننا إذ نشيد بالعمل الجليل الذى أداه الباحث الفاضل الدكتور فؤاد حسنين بترجمة هذا الأثر النافع ، فإننا نعتب عليه أن ترجمه بتصرف كما يقول ، ولسنا ندرى لما ذا عمد إلى هـذا التصرف ، فأن من الأمانة العلمية أن تترجم مثل هذه المؤلفات العلمية التاريخية كما كتبها مؤلفوها ، كما نعتب عليه أن أخرج الكتاب وكأنه بحث واحد فلم يعن بوضع عناوين لموضوعاته وبالتالى لم يضع فهرساً لهذه الموضوعات . ولعله أراد بهذا أن يحمل القارىء على تناول الكتاب دفعة واحدة .

محمد فهمى عبد اللطيف



قصة مصرية :

ألــــوان . . .

للاستاذ نصرى عطا الله سوس

كان قطار الليل يشق طريقه الظلم إلى الصعيد ...

وكانت هذه المرة الأولى التى يستقل فيها الدكتور فؤاد هذا القطار فى طريقه إلى مقر عمله الجديد

لقد عاش طول حياته فى العاصمة ، وكان طبيباً باحدى مستشفياتها .. وأخيراً ، وبعد نزاع مع رئيسه ، نقل إلى إحدى المستشفيات الصغيرة بأعالى الصعيد ، وكان يمكنه أن يستقيل ويكتفى بإيراد عيادته التى تدر عليه الكثير ... وقد فكر فى ذلك حتى أضناه الفكر ، فليس من السهل على رجل ألِف حياة العاصمة أن يجد نفسه فجأة فى جو لم يألفه ، وحياة خشنة جافة هزيلة لم يعتدها !

ولكن تياراً أقوى كان يدفعه فى الاتجاه الآخر : لم يكن قد أفاق بعد من صدمة هائلة أذهلته عن كل شىء ، وأنسته كل الاعتبارات ... كان يود أن يهرب من المكان الذى كان مسرحاً لمأساة قلبه ، والذى كان يذكره بها وينكأ جراحه كلما قاربت الالتئام !

لقد فكر وفكر ... وأخيراً فضّل أن يهرب من أشباح الماضى التى كانت تلاحقه فى عناد ، وتعذب قلبه ، وتغمره فى ليل أبدى لا فجر له !

ولم يكن الدكتور فؤاد من أولئك الأطباء الذين تتركز كل حياتهم فى مهنتهم ، فيحشون أدمغتهم بالمعلومات الطبية التى يطبقونها تطبيقاً أعمى ، بينما يشاركون فى الوقت نفسه رجل الشارع فى ثقافته وأخلاقه وكل غرائزه ، بل كان شخصية ممتازة ، رقيق العاطفة ، مرهف الأعصاب ، ولوعاً بالأدب والموسيقى ، ظامئاً إلى الحياة الدسمة الغنية بمختلف العواطف والإحساسات ، ولم يكن ينقص حياته إلا شيئاً واحداً لا معنى لأى شىء فى الحياة بدونه : ذلك المخلوق الناعم الحلو الذى تمسح ابتسامته السحرية كل الهموم والمتاعب ، وتخلق فى النفوس الشجاعة والعزم والأمل ، ذلك المخلوق الجميل الرقيق الذى نسميه « المرأة » ، وعند ما رآها بعد سنوات طويلة من الحنين والانتظار ، ظن أنه قد عثر على ضالته وحقق أمله ، فاندفع وراء الخيال ، وراح ينسج الأحلام ، ويكيّف حياته تكييفاً جديداً على هدى الكوكب الجديد الذى غمر حياته بالنور ...

وبعد عامين كاملين عرف أنه مخدوع ... وأن الشيطان كان يسرق القربان الذى يتقرب به إلى « كيوبيد » فى معبد الحب ويستحله لنفسه ... واستحالت حياته إلى بحر من الدموع ، وكره العاصمة الكبيرة والحياة فيها ، فلما فوجئ بخبر نقله لم يحزن كما يفعل الموظفون ، بل تلقى الخبر بفتور ، وحمل كتبه وموسيقاه ليهرب من الحياة البراقة الزائفة ، وليخلو إلى نفسه علّه يستطيع أن يلهمها العزاء والسلوان ! إنه سيحقق حلماً جميلاً طالما تمنى تحقيقه ، حياة الطبيعة الساذجة الجميلة ، والساحات الشاسعة الخضراء التى قرأ عن سحرها وجمالها ، وما توحيه إلى النفس من صفاء ، والناس السذج البسطاء الذين لم يتعلموا شرور المدن الكبيرة وآثامها !

إن حياة المدن تفرض نفسها على الإنسان وتستعبده وتخنق فيه حياة العاطفة والروح ... وحياة العاطفة والروح هى كل ما ينشده الطبيب الحزين ، إنه يأمل أن يجد فى صدر الطبيعة ما لم يعثر عليه فى صدر المرأة !

* * *

وتمكن من أن يروض نفسه على حياة الريف ويستسيغها ، ووجد فى بساطة الحياة فيه الراحة التى يجدها الملاح بعد عاصفة هوجاء هددته بالفناء . كان فى الصباح يؤدى عمله فى هدوء ، وفى الأمسية يخرج للرياضة بين المزارع الخضراء ، وعنده بعد ذلك كتبه وموسيقاه ، ولكنه ظل شديد الانقباض عن الناس زاهداً فى الحديث معهم حتى فى رؤيتهم . . !

ووجد « فؤاد » شيئاً من العزاء الذي كان ينشده ولكنه كان عزاء يمازجه كثير من اليأس ... والفلسفة . كان يقول لنفسه إن الذي يعيش مثله بين المرضى ويرى الإنسانية تتألم وتتعذب بهذا القدر ، ويشاهد كل يوم شبح الموت يلهو بالأرواح ، لابد أن يتعلم كيف يزن مسرات الحياة وفواجعها ، ويميز صحيحها من باطلها ... إن أوجاع الحياة توحي إليه بتفاهتها ، تلك الحياة التي نجهد أنفسنا في سبيلها حتى الجنون ! نفني السنين تلو السنين في المتاعب والهموم ، حتى يحل خريف العمر وتذبل أوراقه ، عندئذ نبحث عن ثمار جهودنا وعنائنا فلا نجد شيئاً ! وتهب علينا ريح باردة تهمس في آذاننا أن الكل باطل ، حينئذ ، وحينئذ فقط ، ندرك ... ونشيح بوجوهنا عن الحياة .

... وبمثل هذه الأفكار كان يعزي نفسه عما فاته من مباهج الحياة ومفاتنها ، ومرت شهور وهو منهك في عمله وبقايا همومه وأفكاره القاتمة التي كان يطاردها فتغيب عنه حيناً ثم تعاوده في قسوة وعنف ...

وفي صباح أحد الأيام كان جالساً كعادته إلى مكتبه يطالع صحف الصباح ... وفجأة دخلت فتاة ... وكان من عادته أن يطلب من أولئك الذين يقتحمون عليه خلوته أن ينتظروا بفناء المستشفى حتى يحين موعد العمل ، ولكنه نظر إليها ، وسكت ... وبعد برهة سألها في صوت وادع عما تطالب بينما كانت عيناه تلتهمانها التهاماً ... !

وأسبلت جفونها ، واصطبغ وجهها بلون الدم ، وتلعثمت وهي تجيب . ودعاها برفق أن تقترب ... وتخبره عن مرضها .

واقتربت ، وأخذت تقص عليه أعراض مرضها بصوت ناعم حالم ... بينما كان هو يتأملها في نشوة سعيدة كأنه يتأمل أثراً فنياً خالداً : كانت ترتدي ملاءة حريرية تحتها جلباب باهت اللون وفي إحدى يديها قارورة فارغة ، وفي الأخرى تذكرة أمراض باطنية ، وكان في مشيتها فتور ثمل كأن رأسها قد حمّل أكثر مما يسع من الأحلام ، وفي عينيها ذلك الحنين الذائب الذي تشمه عيون الفتيات عند ما تطرق قلوبهن تلك الإحساسات الحلوة الآسرة التي لا يدركن كنهها ، ونظراتها كطيور تائهة تبحث عن وكرها في عيون أليف حنون يقتنص الأحلام الهائمة في السماء ويريقها في أذنيها بصوته الحلو الرقيق ... !

وتناول منها التذكرة وقرأ البيانات المدونة عليها فعرف أن اسمها « عزيزة » وعمرها سبعة عشر عاماً .

كانت تشكو ورماً بسيطاً في أصابعها وساقيها ، وتناول يدها في كفه وأخذ يتأملها ، واهتزت يده اهتزازاً خفيفاً وهو يضغط على أصابعها ليعرف طبيعة الورم ، ثم فحصها فحصاً دقيقاً ، وطلب منها أن تمتنع عن تناول بعض المأكولات ، وزودها بنصائحه ثم أعطاها ما يلزمها من دواء وانصرفت .

وجلس يفكر وقد ملكت عليه نشوته بحسنها وودعاتها كل حواسه ... أين كان هذا الكنز مختفياً ؟ لِمَ لم تحضر قبل الآن ؟ لقد جاءت ثم ذهبت كأنها الحلم السعيد في هدأة الليل ، وكانت اللحظات التي قضاها وهو يتأمل هذا الوجه السماوي الجميل من أسعد لحظات عمره ... إن هذا الجمال من نوع نبيل يوحي بالعبادة أكثر مما يوحي بالحب : عيناها عسليتان بشمان وداعة وطهراً ، وبشرتها خمرية يعلوها تاج كثيف من الشعر الفاحم ، وكانت نحيفة وهو يكره الجسم المكتنز الذي يوحي دائماً بالرغبات كما أنها أطول من رأى من فتيات القرية ! !

ثم ابتسم وهو يقول لنفسه : « ألأنها جميلة تهتم بها أكثر من بقية المرضى ؟؟ قد تكون الدميمة المشوهة الخلقة أكثر احتياجاً إلى العطف والرعاية » ، ولكنه هرب من الإجابة عن سؤاله ، وأشعل سيجاراً وأخذ يغني بصوت خافت ، وود لو أمكنه أن يرقص أيضاً .

وعند ما بارحته عزيزة لم يأمل أن يراها مرة ثانية ، فقد مضى عليه في هذا المستشفى نصف عام لم تحضر خلاله إلا هذه المرة ، كما أن ملابسها وأناقتها — بالنسبة للقرويات — تدل على أنها تنتسب إلى الطبقة الموسرة التي لا تستسيغ التردد على أماكن العلاج العامة ...

ولكنها عادت في الأسبوع التالي ، وكانت هذه المرة أكثر اعتناء بهندامها وشعرها . وترددت كثيراً قبل أن تتقدم نحوه . أما هو فكان يرقب خجلها وترددها في سرور .

وأخيراً جمعت شجاعتها وذهبت إليه ... ولاحظ وهو يحدثها أن أسنانها أكثر بياضاً مما كانت عند مارآها فى الأسبوع الماضى وأخذ يلقى عليها عشرات الأسئلة حتى تطول وقفتها أمامه وأحس وهو يحدثها أن الثلوج التى ظلت تكتنف قلبه منذ كارثته الأولى بدأت تذوب وتفسح له مجال الحياة مرة أخرى .

كان يكلمها وفى عينيه وجرس صوته أطياف من الشوق والحنان ود لو تجسمت شخصاً حيا يطوقها ويغمرها بالقبل .

ولم تلمح هى فى عينيه ذلك الظمأ الخشن الذى ألفت أن تراه فى عيون الرجال ، إن عيناه تشعان وداعة وسلاماً .

ثم فحصها مرة أخرى ، وأعطاها دواء جديداً وانصرفت .

واطمأنت إليه ، وبدأت تألفه ، واعتادت التردد على المستشفى مرة كل أسبوع على الأقل ، وكانت تتلمس مختلف المعاذير للذهاب إلى المستشفى ، وكان هو ينتظر حضورها فى نوع من القلق ، ورغب فى أن يتعرف بأبيها فلم تعيه الحيل ، ووثق صلاته به وغمره بكل عطفه ، الأمر الذى أثار دهشة الرجل ، وجعله يتساءل عما يرمى إليه الطبيب من وراء كل هذا الاحتفاء !

وأحس « فؤاد » أن جراحه القديمة تبرأ بسرعة ... إنه سعيد بهذه الطفلة البريئة الساذجة ! إنه لا يطلب أكثر من أن يراها لترد إليه من جديد إيمانه بالحياة ، وتزيح عن قلبه الظلام المتراكم ، لقد غمرها بكل ما فى قلبه الأبيض من حنان ... ذلك الحنان الذى كان يعذبه لعدم عثوره على من يغدقه عليه ! ولاشك أن هذه القروية الساذجة ، الطاهرة القلب أجدر الناس به ...

وعند ما يمنح الطبيب قلبه للمريض تلهم العناية الآلهية يده وتحدث المعجزات ... وكانت عزيزة تبدو أكثر نضرة وشباباً فى كل مرة تذهب فيها إلى المستشفى . وكان هو يتأمل احمرار خديها فى فرح وهى تتقدم نحوه والخجل يكاد يقيد قدميها بالأرض آه ... لو كان شاعراً لنظم أروع قصائده فى هذه اللحظة التى يراها فيها وهى مقبلة عليه فى خطواتها الموسيقية الهادئة ...

واستولت الريفية الفاتنة على لب الطبيب الذى نزح من المدينة ناشداً السلوى والعزاء ... وأصبح خيالها يراوده فى اليقظة والمنام ... فمنذ ما كان يقرأ ، أو يفكر ، أو يتأمل الطبيعة والدنيا والناس فينبض قلبه بمختلف العواطف ، وتنتشى نفسه بأجل الإحساسات ، كان يفكر فيها ويتخيلها جالسة إلى جانبه تشاركه عواطفه وإحساساته ويحدق فى وجهها فيرى بريق الذكاء فى عينيها والبسمة الحلوة تضىء قسماتها معبرة عن الفهم والفرح .

ولكن لا تلبث أن تظلل محياه سحابة من الأسى . إنه يسرف فى الخيال : وهى لا تستطيع كل هذا ... إنها القروية الساذجة التى تنطبق حدود الدنيا فى ذهنها على حدود القرية ...

ثم يعود يسأل نفسه لم يعكر صفو سعادته بمثل هذه الأفكار؟ إنه سعيد ، فرح ، يعيش فى دنيا جديدة من خلق عينيها . إن الغيوم الداكنة المتراكمة فى سماء روحه تتبدد تحت أشعة بسماتها الصافية ، ونظراتها الحلوة وتطرد من رأسه كل الأفكار السوداء التى قضى أشهراً وهو يجهد فى إقناع نفسه بها ، وتعلمه من جديد نفاسة الحياة وجمالها ، وعاد يأنس بالناس ويتبسط معهم ويجد فى حديثهم الساذج التافه كثيراً من الغبطة والسرور .

وسارت الأيام فى طريقها والعلاقة بينهما تزداد قوة وعمقاً ، كان هو يتفانى فى خدمتها ويبدى لها من دلائل الوداد والحنان مايجعلها تحس بأنها أسعد أنثى فى الوجود ، لقد اعترفت له وعيناها تتألقان بشراً وحبوراً أن يوم حضورها إلى المستشفى هو « يوم العيد » عندها .. ، وتبادلا كثيراً من التذكارات ، وطلب منها مرة أن تهديه صورتها فاعترفت له فى كثير من الخجل أنها لم تقف مرة واحدة طول حياتها أمام آلة تصوير ، فصورها بنفسه عدة صور ... وكان يصله من العاصمة بين حين وآخر ما لا يتيسر وجوده فى الريف من الحلوى والفاكهة ؛ فلا يطيب له تناول شىء منها إلا إذا أهداها بعضها فينتهز فرصة وجود أبيها معه ويعطيه من كل ما كان يرد إليه .

وآمنت هى بطيبة قلبه وإخلاصه ولم تعد تخجل منه أو تهيبه بل كانت تجد سعادتها فى أن تعترف له بكل ما فى قلبها ...

وكان يلاحظ أحياناً على وجهها آثار الحزن والألم فيسألها عن سبب أشجانها ، ويلمح الدموع تجول فى عينيها وهى تعترف له بأنها كثيراً ما توصد على نفسها باب غرفتها ، وتظل تبكى وتبكى دون أن تدرك لذلك سبباً .

وأدرك هو أن قلبها يعذبها ، خاصة عند ما سألته فى صوت يقطر توسلا وضراعة لماذا يعيش وحيداً ؟ لماذا لا يحضر أمه أو إحدى أخواته لتؤنسه وتسهر على راحته ؟؟ وابتسم ، وعرف أنها لم تعد تقنع بهذه اللحظات العابرة التى تقضيها معه .

وابتدأ يحاسب نفسه ويسألها عن النتيجة !

لقد نبه فى قلبها الشوق ، وأشعل فيه الحب ، وها هو الحب يجلب معه الشجون والأفكار .

لقد فتنه جمالها وطيبة قلبها فهل يربط مصيرها بمصيره ؟ ظل وقتاً طويلا حائراً معذباً بين فكره وقلبه وقضى ليالى برمتها لا يذوق جفنه النوم وهو يفكر كيف تكون حياتها معه لو ... تزوجها ؟

ولكنه اقتنع أخيراً أن بينهما من الفروق ما يجعل الحياة الدائمة معها مستحيلة ، إنها القروية الساذجة التى لم تتلق من العلم شيئاً وقد تهلك عند ما ينزعها من تربتها ليزرعها فى تربة أخرى !. . إن نواحى كثيرة فيه ستبقى مجهولة منها ... مستغلقة عليها ويشق كثيراً فى طريق الحياة المجهد وهى إلى جانبه لا تدرى بشقائه وبواعثه ، وسيسعد كثيراً فى دنيا الفكر والفن والطبيعة وهى إلى جواره لا تستطيع أن ترد ذلك المنهل العذب وتتيح لنفسها تلك المتع الرفيعة التى لا تملك الحياة نفسها أن تمنح أسمى أو أجل منها ...

ولم يخفف قراره هذا من لوعته وألمه : إنه سيحطم بيديه القلب الذى بدد وحشته ، وأنساه آلامه وهز أوتار قلبه هزات دائمة وسيعود يوماً ما إلى برد الوحدة من جديد ولا يجد إنساناً واحداً يستطيع أن يفرح ويحزن معه ...

وظل حائراً معذباً ولكن ماذا يفعل ؟ لقد أحبها أكثر من أى أنثى رآها فى حياته ولكنها ليست له ، هذه الجوهرة النفيسة ما زالت « خاماً » وفى حاجة إلى كثير من الصقل والتهذيب ، لقد غمرها بحنانه لأنها الزهرة الوحيدة فى تربة لا تنبت إلا الحشائش وكان سعيداً بها لأنه يراها لحظات كل أسبوع ولكن الحياة الدائمة بينهما قد تكون مثال التعاسة والشقاء ...

كانت كل هذه الأفكار تصطرع فى رأسه وهى تزداد حباً له وتفانياً فيه ، وهو لا يجرؤ على أن يبوح لها بمكنون ضميره ، وأهل القرية يتهامسون بأن طبيبهم سيتزوج من عزيزة ...

وظل هكذا موزع القلب بين حبه لها وإشفاقه عليها من عاقبة هذا الحب حتى صدر قرار نقله إلى بلدة أخرى ، وللمرة الثانية تلقى الخبر فى فتور حزين مؤمناً أن للقدر أحكامه وسخرياته .

وسمعت هى نبأ نقله فجاءته والدموع تجول فى عينيها وسألته فى لهفة عن حقيقة الأمر ، وعما إذا كان سيعود أم لا ؟؟

وللمرة الأولى منذ حل هذه البلدة وجد الدموع تنحدر على خديه وقال لها : « الله يفعل ما يشاء يا عزيزة ، من يدرى ماذا سيحدث غداً ؟ » .

وأحس من نظراتها القلقة الحادة أن إجابته لم تعد إليها طمأنينتها ، ولكنه لم يجد ما يقوله . وبعد أن قضت معه فترة انصرفت وهى تتعثر فى خطواتها ...

شعر بقلبه يمتلىء سخطاً على نفسه وندماً ! ليته ما عرفها ، إنه سيذهب ولا يخلف لها إلا الحسرة والألم والدموع ... ولكن هل كان يستطيع أن يحول بين قلبه وبين الهيام بها والافتتان بجمالها الرقيق وروحها العذب ؟ وهل فى طبيعة الأشياء أن يقف المرء فى طريق قلبه ويخنق عاطفته التى تفيض طهراً وسمواً ، وتغدق على حياته ، وحياتها هى ، أنبل المعانى وأجمل الإحساسات ؟

وحل اليوم الموعود وغادر البلدة إلى مقر عمله الجديد .

وتوالت الشهور والأيام وذكراه تحتكر فكرها وقلبها ، وظلت تمنى نفسها أنه سيعود يوماً ويملأ حياتها فرحاً وسعادة .. وطال انتظارها وعادت إلى وحشتها وكآبتها ودموعها ... وكانت تجلس ساعات وحيدة ساهمة تحدق فى الطريق البعيد المؤدى إلى المحطة ... فقد يلوح شبحه فجأة قادماً من بعيد .

وتقدم ابن عمها لطلب يدها فرفضت .

أما هو فكثيراً ما كان يفكر فيها ويمتلىء قلبه شوقاً إليها ، ولا تكاد تمر ليلة دون أن يضع صورها أمامه ، ويطيل التأمل فيها ، ويسأل نفسه : « ترى من سيتزوجها ؟ ليس بين أهل قريتها من هو جدير بها ! » ثم يرفع وجهه نحو السماء ويضرع إلى الله أن يمنحها الرجل الذى يستطيع أن يمنحها السعادة والهناء !.

نصرى عطا الله سوسى

مطبعة الرسالة